حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية

فصلية علمية محكمة ـ مجلس النشر العلمي ـ جامعة الكويت

مقاربة فلسفية ردّية لطبيعة الظواهر الذهنية مطعمة بأفكار أرسطية مع مناقشة عامة للرؤية الوظيفية: بحث في فلسفة الذهن

A Reductionist Approach to the Nature of Mental Phenomena Injected with Aristotelian Ideas Accompanied by a General Discussion of Functionalism

د. حسين حيدر علي إسماعيل

قسم الفلسفة ـ كلية الآداب

جامعة الكويت

جامعة الكويت
KUWAIT UNIVERSITY

مجلس
النشر العلمي

ISSN: 1560 - 5248

الرسالة 620 - الحولية 43

1445 هـ / يونيو 2023 م

• ثمن العدد

الكويت: 500 فلس، البحرين: دينار واحد، قطر: 10 ريالات، الإمارات 10 دراهم، السعودية: 10 ريالات، عمان : ريال واحد.

ثمن النسخة في دول الوطن العربي ما يعادل دولاراً واحداً.

ثمن النسخة في الدول الأجنبية ما يعادل ثلاثة دولارات.

• الاشتراك السنوي (أفراد):

سنة واحدة: الكويت 4 دينار كويتي، الدول العربية: 6 دينار كويتي، الدول الأجنبية 22 دولار.

سنتان: الكويت 7 دينار كويتي، الدول العربية: 10 دينار كويتي، الدول الأجنبية 37 دولار.

ثلاث سنوات: الكويت: 10 دينار كويتي، الدول العربية: 14 دينار كويتي، الدول الأجنبية 52 دولار.

أربع سنوات: الكويت: 13 دينار كويتي، الدول العربية: 18 دينار كويتي، الدول الأجنبية 67 دولار.

• الاشتراك السنوي (موسسات):

سنة واحدة: الكويت 22 دينار كويتي، الدول العربية: 22 دينار كويتي، الدول الأجنبية 90 دولار.

سنتان: الكويت 37 دينار كويتي، الدول العربية: 37 دينار كويتي، الدول الأجنبية 150 دولار.

ثلاث سنوات: الكويت: 53 دينار كويتي، الدول العربية: 53 دينار كويتي، الدول الأجنبية 210 دولار.

أربع سنوات: الكويت: 67 دينار كويتي، الدول العربية: 67 دينار كويتي، الدول الأجنبية 270 دولار.

جميع المراسلات الخاصة بشروط النشر أو أية استفسارات أخرى

توجه إلى رئيس تحرير حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية

ص.ب: 17370 الخالدية – الكويت: 72454 – تلفون: 24830256 – فاكس 24830256

ISSN 1560 - 5248 Key title: Hawliyyat Kulliyyat al-Adab

E-mail: aass@Ku.edu.Kw

http://apc.kuniv.edu.kw/AASS/

تتوفر نصوص البحوث كاملة لدى:

EBSCO Publishing Products

دار المنظومة: www.mandumah.com

إصدارات مجلس النشر العلمي

مجلة العلوم الاجتماعية 1973، مجلة الكويت للعلوم والهندسة 1973، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية 1975، لجنة التأليف والتعريب والنشر 1976، مجلة الحقوق، 1977، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية 1980، المجلة العربية للعلوم الإنسانية 1981، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية 1983، المجلة التربوية 1983،المجلة العربية للعلوم الإدارية 1991.

حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية

مجلس النشر العلمي ـ جامعة الكويت

فصلية علمية محكمة تتضمن مجموعة من الرسائل
تعنى بنشر الموضوعات التي تدخل في تخصصات
العلوم الإنسانية والاجتماعية والآداب

الحولية الثالثة والأربعون
الرسالة العشرون بعد المئة السادسة
1445 هـ / 2023م

حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية – جامعة الكويت

هيئـة التحريـر

- **أ.د. تغريد محمد القدسي**
  رئيسة هيئة التحرير
  قسم دراسات المعلومات - جامعة الكويت

- **أ.د. عبد الله محمد الغزالي**
  قسم اللغة العربية وآدابها - جامعة الكويت

- **أ.د. باقر سليمـان النجار**
  قسم الاجتماع والخدمة الاجتماعية
  جامعة الكويت

- **أ.د. عبد العزيز علي سفر**
  قسم اللغة العربية وآدابها
  جامعة الكويت

- **أ.د. نعمان محمود أحمد جبران**
  قسم التاريخ - جامعة الكويت

- **د. عبد الله محمد الجسمي**
  قسم الفلسفة - جامعة الكويت

- **د. إبراهيم ناجي الهدبان**
  قسم العلوم السياسية
  جامعة الكويت

- **د. أحمد مبارك الحصم**
  قسم الجغرافيا - جامعة الكويت

- **مهـا إبراهيـم المسعد**
  مديرة التحرير - جامعة الكويت

الهيئـة الاستشارية

- **أ.د. باسـل حاتـم**
  الجامعة الأمريكية - الشارقة
  الإمارات العربية المتحدة

- **أ.د. إبراهيـم السعافين**
  قسم اللغة العربية - الجامعة الأردنية

- **أ.د. حمدي حسن أبو العينين**
  كلية الإعلام - جامعة مصر الدولية

- **أ.د. سـاري حنفـي**
  رئيس الجمعية الدولية لعلم الاجتمـاع
  الجامعة الأمريكية - بـيروت

- **أ.د. منـى بيكـر**
  جامعة مانشستر - المملكة المتحدة

- **أ.د. عبدالقادر الفاسي الفهري**
  قسم اللغة العربية - جامعة محمد الخامس

- **أ.د. محمود السيد أبو النيل**
  قسم علم النفس - جامعة عين شمس

- **أ.د. عبد الله الوليعي**
  قسم الجغرافيا - جامعة الملك سعود

- **أ.د. مـأمـون فنـدي**
  مدير معهد لندن للدراسات الإستراتيجية
  المملكة المتحدة

قواعد النشر في حَوْليّات الآداب والعلوم الاجتماعيَّة

- حوليات الآداب والعلوم الإجتماعية هي فصلية تنشرُ البحوثَ والدِّراساتِ الأصيلةَ باللّغتَيْن العربيَّةِ والإنجليزيَّة في مجال العلوم الاجتماعيّة والإنسانيّة والتي يتوفر بها ما يلي:
- أنْ تُمثِّلَ الدِّراسةُ إضافةً جديدةً في حقل التّخصّص.
- لم يَسْبق نَشْرُ الدِّراسةِ بأيِّ صورة كانت، ولم يسبق أيضًا تقديمُها للنَّشْر إلى جهة أخرى أثناء وُرودها إلى الحَوْليّات. ويلتزم الباحثُ بكتابة إقرارٍ وتعهّد بأنَّ البَحْثَ المُقدَّمَ لم يسبق نَشْرُه في أيِّ وعاء نشر، أو أُرسل إلى جهة أخرى.
- ألا يقلَّ عَدَدُ كلماتِ الدِّراسة عن (15000) كلمة، شاملة المراجع والهوامش والجداول (بحدود 50 صفحةً) وألا يزيدَ عددُ الكلماتِ عن (60000) كلمة في حدود 200 صفحة.
- يطبع البَحْثُ بواسطة مُعالِج النّصوص Word Microsoft وعلى مسافة ونصف، وبنط 14 Arabic Simplified للبُحوث باللّغة العربيّة، وعلى مسافتَين، وبنط 12 Times New Roman في حالة البُحوث باللّغة الإنجليزيَّة.
- يُرْفِقُ الباحثُ ملخَّصًا للبَحْثِ، مطبوعًا باللّغتَيْن العربيَّة والإنجليزية، في حدود (250) كلمةٍ. على أنْ يحويَ ملخَّصُ البحثِ: هَدَف الدِّراسة وأسئلتها، مَنْهج الدِّراسة المُستَخْدَم، أبرز النّتائج المُسْتَخْلَصة وأهمّ الإستنتاجات إضافة للكلمات الدالة (المفتاحية).
- يُرْفِقُ الباحثُ مع البَحْثِ سيرةً علميَّةً مُخْتصرةً، مطبوعةً باللّغتَيْن العربيَّة والإنجليزيَّة، تشمل أهمّ مؤلّفاته وأبحاثه.
- تقدَّمُ الخرائطُ والأشكالُ والرسومُ (إنْ وُجدت) بأصولها الصّالحة للطِّباعة بصيغة JPG، وبمستوى دقّة 600 * 800.
- في حالة رغب الباحث بنَشْرِ الصّور أو الخرائطِ أو الأشكال البيانيّة الملونة؛ يلتزمُ بدَفْع تكاليفها.
- يراعي الباحثُ عند كتابة البحثِ الالتزامَ بالنسخة الأخيرة (السابعة) من نظام جمعية علم النفس الأمريكية American Psychological Association APA من حيثُ كتابةُ المراجع والهوامش في مَتْن البحث، إضافة لقائمة المراجع. على الوَجْه المُوضَّح أدناهُ.
- كتابة المرجع في المتن: اسم العائلة للمؤلِّف مَتْبوعًا بفاصلة، ثُمَّ سنة النشر. (يُرْجى الرّجوعُ إلى دليل التّوثيق وَفْقًا لنظام APA لمزيد منَ التفاصيل.

مثال (Courtois, 2001)

- قائمة المراجع: يُرْجى الرّجوعُ إلى دليل التّوثيق وَفْقًا لنظام APA للتفاصيل.

Jones, J. (2005). Writing with style. Style Writing Journal, 12 (6), 1433

ويمكن زيارة موقع APA لمعرفة القواعد الخاصَّة بنِّظام APA على:

http://www.apastyle.org

- يجب أن تشمل جميع البحوث على قائمة المراجع كاملة في نهاية البحث، على أن يكون بنط الكتابة بالنص الروماني (Times Roman Script).
- لمعرفة قواعد وأخلاقيات النشر الرجاء مراجعة موقع الحوليات الإلكتروني:

http://apc.kuniv.edu.kw/

شروطُ قَبولِ البُحوثِ في الحَوْليّات:

- يجب أن يقدم البحث عن طريق نظام الـ OJS وليس البريد الإلكتروني ليتسنى للحوليات البدء بالتقييم. - تقبلُ الحَوْليّاتُ فقط البحوثَ الَّتي تقدم الكترونياً من خلال الموقع:

http:// journals.KU.edu.KW/aass

- لا تقبلُ مجلّةُ الحَوْليّاتُ البحوثَ الَّتي سبق نَشْرُها بأيِّ شكل أو وسيط.
- لا تقبل مجلّةُ الحَوْليّاتُ نَشْرَ أبحاثِ الماجستير أو الدكتوراه أو أيّ مستلّات منها.
- لا تُرَدُّ ولا تُسْتَرْجَعُ أصولُ البُحوثِ المُقدَّمةِ للنَّشْر، سواء نُشِرَتْ أم لم تُنْشَر.
- لا يجوزُ نَشْرُ البحوثِ مع جهات أخرى إلا بعد موافقة الحَوْليّاتِ على ذلك وإذا ثبت نشرها فستتَّخذ إدارةُ الحَوْليّات الإجراءاتِ القانونيَّةَ المُتَّبعةَ بهذا الشّأن.
- .يمكنُ للباحث نَشْرُ بَحْثِه مع جهاتٍ أخرى، بعد الحصول على إذن كتابيٍّ سابق من رئيس التّحرير، وبعد انقضاءِ ثلاثِ سنواتٍ على نَشْرِه في الحَوْليّات.
- يعرض البحث الَّذي تتوافر فيه القواعدُ المذكورة سابقًا وبَعْدَ موافقة هَيْئة التَّحرير، على مُحكِّمينَ إثنين لتقرير مدى صلاحية البَحْثِ للنَّشْر في المجلّة تحكيم ثنائي الحجب (Double Blind Review).
- تَمْنَحُ المجلَّةُ للباحثِ ثلاثون نسخةً مجانية مطبوعة من بَحْثِه المنشورِ.
- تُرْسَلُ جميعُ المراسلات الخاصة بالحَوْليّات ما عدا البحوث إلى رئيس التَّحْرير عن طريق البريد الإلكترونيِّ للمجلّة.

رئيس تحرير حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية

ص.ب : 17370 الخالدية

رمز بريدي : 72454 - الكويت

ISSN 1560 Key title: Hawliyyt Kulliyyat al-Adab

http://apc.kuniv.edu.kw/AASS

E-mail: aass@ku.edu.kw

الإصدار الرابع – الحولية الثالثة والأربعون – يونيو 2023

هذا هو إصدار يونيو 2023؛ ثاني ما يصدر منذ تسلّمي رئاسةَ تحرير مجلة حوليّات الآداب والعلوم الاجتماعية. أحدثنا العديد من التجديدات التي كنّا مضطرين إليها، وكانت سببًا في تأخير الصدور. نعتذر لقرّائنا عن ذلك، ونأمل أن نواظب من الآن فصاعدًا على صدور المجلة في وقتها. أنهينا تفاصيل الانتقال إلى مكاتب المجلة الجديدة؛ لنكون مع باقي المجلات العلمية التي تصدر عن مجلس النشر العلمي بجامعة الكويت في مبنى واحد يضم صحيفة الجامعة الغرّاء (آفاق)، ناهيك عن أننا نحاول الولوج إلى عالم قواعد البيانات العالمية. جميع العاملين معي تكبدوا – ويكابدون – الصعاب، لكنهم نِعم الرّفاق.

إصدار يونيو الذي بين أيديكم يبدأ بالرسالة (620) التي عنوانها: «مقاربة فلسفية ردية لطبيعة الظواهر الذهنية مطعمة بأفكار أرسطية»، وهي بحث شائق في فلسفة الذهن للدكتور حسين حيدر علي إسماعيل، من قسم الفلسفة بجامعة الكويت. ينظر البحث في العلاقة بين الظواهر الذهنية والعمليات العصبية والحيوية الكيميائية كأمثلة لما هو مطروح وجدلي في فلسفة الذهن. يقدم البحث أيضًا لمجموعة من المدارس الفلسفية في فلسفة الذهن، ويهيئ لها القارئ.

الرسالة الثانية (621) بعنوان: «دور قادة الرأي العام السعودي عبر استخدامات وسائل التواصل الاجتماعي: دراسة مسحية». الدراسة من جامعة الملك سعود، وتنقلنا كقراء إلى موضوع حديث ومغاير؛ فهي تبحث في دور وسائل التواصل الاجتماعي وتأثيرها في: قادة الرأي، وفي الرأي العام السعودي، وفي أداء الحكومة. يستخدم الباحث المنهج الوصفي المسحي من خلال توزيع استبانة على عينة تكوّنت من (2463) مبحوثًا. أكدت الدراسة، كما العديد من الدراسات السابقة، كبر عدد مستخدمي التطبيق وتأثرهم بمحتواه.

أما الرسالة (622) فهي بعنوان: «خصائص تغيرات درجات الحرارة في دولة الكويت: دراسة في الجغرافيا المناخية»، للدكتورة هيا ناصر الحسينان من قسم الجغرافيا في جامعة الكويت. وهي دراسة وصفية تحليلية للتغير المناخي في درجات الحرارة للأعوام بين (2009 – 2020). عمدت الدراسة إلى النظر في البيانات المناخية المسجّلة مثل متوسط درجة الحرارة ودرجات الحرارة الصغرى والعظمى. وجدت الدراسة أن الاتجاه العام يشير إلى الارتفاع، وأن تعريف المناخ العام في الكويت هو «الحار الخانق».

الرسالة (623) عنوانها: «بطالة الشباب في الكويت: الواقع والتحديات وسياسات المعالجة: دراسة تحليلية»، للدكتور فهد الفضالة والدكتور نواف أبو شماله من المعهد العربي للتخطيط

في الكويت. هذه دراسة وصفية تحليلية لظاهرة مهمة؛ إذ سعت إلى الوقوف على أسباب البطالة، وطرحت طرائق وسياسات معالجتها والحد منها، واقترحت حلولها من خلال مجموعة ممارسات وسياسات لها علاقة بالعرض والطلب في السوق الكويتي، ومن خلال طرح سياسة الإحلال الوظيفي الممنهجة، ودعم العمالة الوطنية في القطاع الخاص، ومعاودة هيكلة القطاع العام، وتطوير سياسات التعليم والتدريب لتتوافق مع ذلك.

الرسالة (624) عنوانها: «الأمن القومي الكويتي في ضوء توازن القوى الدولي والإقليمي»، للأستاذ الدكتور عبد الله سهر والدكتورة سارة المطيري والدكتورة حنان الهاجري من قسم العلوم السياسية في جامعة الكويت. تهدف هذه الدراسة إلى تحليل أهم تداعيات الصراع السعودي الإيراني، وانعكاساته على سياسة الكويت والمنطقة؛ ثم تنظر في المتغيرات العالمية والإقليمية، وكيف توثّر في سياسة الكويت. تستخدم المنهج الوصفي التحليلي إلى جانب التاريخي؛ لتجيب عن الأسئلة التي تثيرها الدراسة. تخلص الدراسة إلى أثر المتغيرات الإقليمية والدولية في الكويت، وكيف يمكن للكويت أن تواجهها.

الرسالة (625) بعنوان: «الأوضاع الطائفية في جبل لبنان بين الإدارة العثمانية والتدخل الأجنبي (1845 – 1915م) في ضوء وثائق الأرشيف العثماني»، للدكتورة أسمهان خليل أستاذ التاريخ الحديث في جامعتي الملك فيصل وبني سويف بمصر. تنظر الدراسة في تاريخ لبنان الحديث والمعاصر عندما تصادمت مصالح الدول الغربية واستغلت أوضاع اختلاف الطوائف اللبنانية العديدة والدولة العثمانية الطائفية المنهارة كذلك. تمت عملية جمع معلومات الدراسة والبحث عنها في مصادرها العثمانية الأصلية. وجدت الدراسة أن الطائفية استُخْدمت غطاءً للكثير من النزاعات المقيتة الأخرى، كما أنها كرّستها.

الرسالة الأخيرة (626) في هذا الإصدار هي بعنوان: «أبنية الجموع في معلقة عمرو بن كلثوم: دراسة صرفية دلالية»، للدكتور عماد أبو دية أستاذ النحو والصرف المساعد في جامعة الأقصى. نظرت هذه الدراسة في ظاهرة (الجمع) المهمة في دراسة اللغويات عندما لا تعبر ظاهرة الإفراد أو التثنية عما يجول في خاطر الشاعر؛ وهذا ما يدفعه إلى استخدام الجمع ليعبّر عن الأثر الكبير والعميق. أكّد الباحث هذه النقطةَ من خلال دراسة معلقة عمرو بن كلثوم، وخلصت الدراسة إلى استخدام ظاهرة الجمع في هذه المعلقة لابن كلثوم كمثل لتعبّر عن الفخر.

أ.د. تغريد محمد القدسي
رئيسة التحرير

Doi10.34120/0757-043-620-001

الرسالة (620)
قدمت في : 2020/3/1
أجيزت في: 2020/11/17

● **للاستشهاد:**
إسماعيل، حسين حيدر علي. (2023). مقاربة فلسفية ردية لطبيعة الظواهر الذهنية مطعمة بأفكار أرسطية مع مناقشة عامة للرؤية الوظيفية: بحث في فلسفة الذهن. *حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية* (43) 620.

مقاربة فلسفية ردّية لطبيعة الظواهر الذهنية مطعمة بأفكار أرسطية مع مناقشة عامة للرؤية الوظيفية (بحث في فلسفة الذهن)

A Reductionist Approach to the Nature of Mental Phenomena Injected with Aristotelian Ideas Accompanied by a General Discussion of Functionalism

د. حسين حيدر علي إسماعيل

قسم الفلسفة ـ كلية الآداب
جامعة الكويت

المؤلف:

د. حسين حيدر علي إسماعيل

- بكالوريوس في الفلسفة من جامعة الكويت
- دكتوراه في الفلسفة اليونانية عن أطروحة «**إمكانية الحوار الفلسفي في محاورة ثياتيتوس لأفلاطون**» **(The Possibility of Philosophical Discourse in Plato's Theaetetus)** كلية بوسطن، 2005.
- مدرس للفلسفة اليونانية في قسم الفلسفة، جامعة الكويت.

الإنتاج العلمي:

كتب:

1- في حاجة الشرق إلى ثورة بنيوية فلسفية (أو الإمكان وأنحاء الوجود) ، دار تكوين، الكويت.

البحوث:

1- الوجود عند أرسطو وابن سينا : من كثرة الماهيات إلى وحدة الوجود. حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة الكويت، 2018.

2- حقيقة الزمان عند أرسطو ومكتاجرت. مجلة كلية الآداب والعلوم الاجتماعية بجامعة السلطان قابوس.

فهرس المحتـوى

الملخص 13

1 - تمهيد 18

2 - الرؤية الردية 20

أهم الاعتراضات على الرؤية المادية 24

3 - المدرسة الوظيفية 29

أهم الاعتراضات على المدرسة الوظيفية 35

4 - علاقة النفس بالبدن وفقاً لأرسطو 42

إثبات الفرضية 42

نتيجة 49

5 - مقاربة ردية للظواهر الذهنية 50

أولاً - مناقشة أهم الإشكالات والاعتراضات التي وجهت إلى المسلك الرّدّي المادي 50

ثانياً - أرجحية الرّدية المادية في تفسير الظواهر الذهنية على ما سواها من مذاهب فلسفية 62

نتيجة الدراسة 73

المراجع 75

الملخّص

أهداف الدراسة: من أهم أهداف هذه الدراسة محاولة ترجيح المسلك الردي المادي في تفسير الطبيعة الوجودية للظواهر الذهنية على غيره من المسالك الفلسفية، وهو ترجيح قائم، أولاً، على قراءة معينة لتصور أرسطو لعلاقة النفس بالبدن، وثانياً، على عدم كفاية التفسير الوظيفي للظواهر الذهنية والخاصية الكيفية التي تنسب إليها، وثالثاً، على ملاحظة وجود خلل في الافتراضات الأساسية التي استندت إليها الاعتراضات الفلسفية الرئيسة التي وجهت إلى المدرسة الردية، ورابعاً، على ملاحظات فلسفة الأعصاب ونتائج علم الأعصاب، وعلم الأعصاب المعرفي، وعلم النفس العصبي السلوكي، وعلم أعصاب الشبكة، وعلم الأحياء العصبية، وعلم النفس. **المنهج المتبع:** تقوم منهجية الدراسة على النظر الفلسفي القبلي مدعوماً بنتائج العلم التجريبي البعدي وتفسيراته ومسترشداً بها. ولا تهدف هذه الدراسة إلى ترجيح الموقف الردي المادي على غيره من المواقف اللا ردية فحسب، بل أيضاً إلى تزويد القارئ العربي بنبذة عن مختلف المدارس الفلسفية في حقل فلسفة الذهن وتعريفه بما استجد من نتائج الأبحاث العلمية حول طبيعة العلاقة ما بين الظواهر الذهنية والعمليات العصبية والحيوية الكيميائية. **النتائج:** تعد طبيعة العلاقة بين الظواهر الذهنية والعمليات والنظم العصبية الكيميائية الحيوية من أهم المسائل المطروحة في فلسفة الذهن وربما أكثرها إثارة للجدل؛ إذ ذهب أتباع المدرسة الردية المادية إلى اتحادهما وعدم تغايرهما، بينما ذهب أتباع الرؤية الثنائية واللا ردية إلى تغايرهما وعدم إمكانية رد الظواهر الذهنية رداً مادياً صرفاً.

الكلمات الدالة (المفتاحية): الظواهر الذهنية، الرد، الصورة، الوظيفية، العمليات العصبية، كيفية الخبرة الحضورية.

من الأمور التي أسهمت في انحسار التفسير الرّدي المادي للظواهر الذهنية عند معظم فلاسفة الذهن فشله في استيفاء مبدأ الهُويّة (ما يعرف بمبدأ ليبنتز)، الذي يذهب إلى أن الاتحاد التام بين شيئين لا يتحقق إلا إذا كانا متطابقين في جميع الخواص؛ حيث إن أي خاصية لأحدهما هي خاصية للآخر، والعكس (Heil, 2013)[1]. فبناء على رأي بعض منهم، تتمتع الظواهر الذهنية (أي الأحوال[2]، والخصائص[3]، والأحداث الذهنية[4]، والوعي) بخصوصية معرفية ووجودية تجعلها مباينة في طبيعتها للمادة؛ ومن ثم لا يمكن ردها إليها (المادة). كما أنها –بحسب معظم أنصار المدرسة الوظيفية– يمكن أن تتحقق نظرياً وواقعياً في أكثر من نظام مادي أو غير مادي أيضاً؛ مما يجعل من عملية ردها وتفسيرها تفسيراً مادياً صرفاً أمراً متعذراً، وفي هذا خرق لمبدأ الهُويّة سالف الذكر[5].

ومن أهم النظريات الفلسفية التي عدت بديلاً مناسباً للتصور الرّدي المادي للذهن وطبيعة الظواهر الذهنية، وربما أكثرها انتشاراً وحظوة عند فلاسفة الذهن المتأخرين، هو التصور الذي ابتكره الفيلسوف هيلاري بتنام في ستينيات القرن الماضي المعروف بالوظيفية (Functionalism). بشكل عام، يمكن عدّ المدرسة الوظيفية وسطاً بين الثنائية الديكارتية والمادية[6]؛ إذ إنها لا تقول باستقلالية الظواهر الذهنية عن الحيز الذي تتحقق فيه، ولا تقوم بردها إلى خصائص عضوية مادية بحتة؛ على اعتبار امتلاكها (تلك الظواهر) خاصية التحقق المتعدد (Multiply Realizable)، التي

(1) ينبغي التنبيه هنا إلى أنه – بخلاف ما هو حاصل في فلسفة الذهن– يشهد المسلك الرّدي عودة قوية إلى الساحة العلمية، وذلك بفضل الاكتشافات التي تحققت في ميدان علم الأعصاب والبيولوجيا الجزيئية (Schouten, Maurice and De Jong, Huib Looren, 2012).

(2) مثل: الكون في حالة غضب، أو ألم، أو رؤية، أو وعي بالذات، أو توتر، أو قلق، أو خوف ...

(3) مثل: خاصية الغضب، أو الألم، أو الرؤية، أو الإدراك، أو التوتر، أو القلق، أو الخوف، وهي الخاصية التي تصف نوع الحالة الذهنية.

(4) مثل: عندما ينتقل الشخص من حالة (الهدوء مثلاً) إلى حالة أخرى (الغضب مثلاً)، فإن اكتساب هذا الشخص لتلك الحالة الجديدة يشير إلى وقوع حدث ذهني ذي خاصية معينة.

(5) تفصيل ذلك سيأتي لاحقاً.

(6) وإن كانت أقرب للمادية منها للثنائية ذات المذاق الديكارتي.

سأتحدث عنها بشيء من التفصيل لاحقاً. المدرسة الوظيفية –إذن– ليست ثنائية خالصة ولا مادية محضة، بل هي أمر بين أمرين، إن جاز التعبير.

يرجح هذا البحث الموقف الرّدي المادي للظواهر الذهنية على ما سواه من مواقف فلسفية ثنائية ولا ردية لأسباب فلسفية وعلمية، وهو ترجيح يقتضي مني –من بين جملة من الأمور– مناقشة فكرة التحقق المتعدد للظواهر الذهنية، التي طرحتها بعض المدارس الفلسفية التي تنتمي إلى المدرسة الوظيفية كبديل أكثر ملاءمة ومرونة من فكرة الهُويّة، التي نادت بها المدرسة الرّدية المادية. ولن يكتمل النقاش من دون النظر فيما يطلق عليه بالكيفيات الذهنية (Qualia) (أو الجانب الظاهراتي التي تتميز بها الخبرة الذاتية المعيشة)، لقيام كثير من الإشكالات والاعتراضات التي وجهت لأنصار المسلك الرّدي المادي (وللمدرسة الوظيفية أيضاً) عليها. ما اقترحه في هذا البحث هو عدم الاستقلالية الوجودية والمعرفية للظواهر الذهنية عن البنية العصبية الحيوية الفريدة للجهاز العصبي، الذي يشمل الدماغ بطبيعة الحال. إن الحديث عن وجود نمط واقعي من أنماط الثنائية، يفتقر –من وجهة نظري– إلى الدقة، الذي ربما جاء –إضافة إلى أمور أخرى سنتطرق إلى بعض منها في المقام المناسب– نتيجة الخلط بين منظورين ينطلقان من زاويتين مختلفتين من عملية الإدراك: زاوية تقوم على منظور الشخص الأول (الخبرة الذاتية المعيشة)، وأخرى قائمة على منظور الشخص الثالث. استفدت في موقفي هذا من بعض التصورات الأرسطية الفلسفية، التي تصف طبيعة العلاقة بين النفس والبدن من منظور فلسفي معين. كما استعنت ببعض المقاربات الفلسفية والعلمية المعاصرة التي طرحتها فلسفة الأعصاب، وعلم الأعصاب، وعلم النفس الإدراكي، وعلم أعصاب الشبكة، وعلم الأعصاب الإدراكي (أو المعرفي)، وعلم النفس، وعلم النفس العصبي التجريبي. من هنا، **المنهج** الذي أتّبعه في هذا البحث قائم على ركنين أساسيين: النظر الفلسفي، ونتائج بعض العلوم التجريبية. وبتفصيل أكثر، أستخدم في هذا البحث الطريقة الفلسفية القبلية التي تقوم على تحليل التصورات والمفاهيم تحليلاً نظرياً بحتاً، لكن بما أن الموضوع (النظر في طبيعة الظواهر والأحوال الذهنية) له صلة قوية بالعلوم الطبيعية الإيجابية التي تتناول عملية الإدراك والأحوال والظواهر الذهنية،

ومكوناتها الحيوية من زاوية تجريبية، فإنني أجد أنه من اللازم –من وجهة نظري– عدم الاكتفاء بالأسلوب الفلسفي القبلي التحليلي البحت، وإضافة المسلك الفلسفي البعدي إليه كطريقة مكملة وداعمة لتحليلاته، واستنتاجاته. بناء عليه؛ المنهج الذي يقوم عليه هذا البحث مركب من مسلكين: واحد نظري قبلي، وآخر تجريبي تركيبي بعدي، وبذا يكون منهجي في هذا البحث قريباً من **المسلك الطبيعي (Naturalism)** للفيلسوف كواين (W.V.O. Quine) الذي يذهب إلى أهمية المناهج والنتائج العلمية للفلسفة (Daly, 2010).

وفيما يخص أرسطو، فعلى الرغم من قيام أبحاثه الفلسفية للنفس على فيزياء عفا عليها الزمن (Burnyeat, 1992)، وعلى كون تصوره للنفس –نوعاً ما– ثنائي النزعة (خصوصاً ذلك القسم من النفس المتعلق بعملية التفكير)، فإن تصوره النظري –في رأيي– لطبيعة العلاقة بين بعض أقسام النفس وبين البدن لا يزال مثمراً وملهماً في بعض الموارد الفلسفية؛ حيث يمكن البناء عليه، واشتقاق بعض الأفكار الفلسفية المهمة منه، التي قد تنسجم مع الخط العام الذي يتبناه هذا البحث. أما بالنسبة إلى مقاربات العلوم التجريبية، فلا أعتقد –كما أشرت– بغنى الباحث في تلك الأمور عنها، والاستفادة منها فلسفياً ما أمكن؛ وذلك لتجنب تكوين تصورات ما ورائية خاوية عن موضوعات أحوالها وخواصها لا تعرف إلا بصورة تركيبية بعدية.

ينقسم البحث إلى أربعة أقسام رئيسة: يتضمن القسم الأول نبذة عامة عن رؤية المسلك الرّدّي المادي التقليدي لطبيعة الكيفيات والأحوال الذهنية، مع ذكر أهم الاعتراضات التي أوردت عليها، وسأتعرض في القسم الثاني إلى المدرسة الوظيفية، مع تناول بعض من أهم أفكارها المتعلقة بموارد البحث، كما سأتطرق أيضاً إلى بعض الاعتراضات المهمة التي وجهت إليها، وسأقوم في القسم الثالث ببسط رؤية أرسطو لطبيعة العلاقة بين النفس والبدن، مع مناقشة نسبة المدرسة الوظيفية إليه القول بخاصية التحقق المتعدد، ويشكل هذا القسم جزءاً رئيساً من مقاربتي الرّدّية للظواهر الذهنية، أما القسم الرابع؛ فينقسم إلى جزأين أساسيين: الأول هو امتداد للقسم السابق، يحاول الرد على أهم الاعتراضات التي وجهت إلى

الرؤية الرّدّية من زاوية فلسفية، أما الجزء الثاني؛ فسيتم فيه بيان وجهة نظري تجاه العلاقة بين الظواهر الذهنية والمادية، وكيف أن تلك العلاقة أقرب ما تكون إلى الاعتبارية (الذهنية) منها إلى الواقعية، وذلك بناء على معطيات العلوم التي أشرت إليها قبل قليل.

1 - تمهيد

تعريف بعض المصطلحات الرئيسة في البحث: من المهم في هذه المرحلة من البحث بيان أهم المصطلحات والمفاهيم الواردة فيه. ومن أهم تلك المصطلحات مصطلح **الردّ** (Reduction) الذي استخدمته في أكثر من مورد من البحث.

يعد البعض (Garson, 2015، على سبيل المثال) مفهوم الرد مفهوماً غامضاً، على اعتبار أنه يعني أحياناً التفسير؛ أي تفسير ظاهرة معينة بناء على ظاهرة أكثر أساسية منها (Baggini & Fosl, 2010) (كتفسير خواص الوعي –كالقصدية (intentionality)7 والكيفية (qualia)– وفقاً لأنشطة الدماغ)، مع التوقف –أحياناً– عن إطلاق أي حكم ما ورائي على المقام الأنطولوجي للظاهرة الأولى، وقد يعني أن ظاهرة ما في حقيقتها ليست سوى ظاهرة أخرى أكثر أصالة وأساسية منها من الناحية الأنطولوجية، كما عندما نقول –مثلاً– إن الظواهر الذهنية في حقيقتها ليست سوى عمليات حيوية عصبية مادية. يسمى هذا النمط من الرد الردّ الماورائي أو الأنطولوجي، بينما يسمى النمط الأول الردّ المعرفي. لكن ينبغي الالتفات هنا إلى وجود نوع من التداخل ما بين النمطين من الردّ (Garson, 2015)؛ إذ قد يكون الرد المعرفي سبباً كافياً –لدى البعض– للقول بالرد الماورائي، كما أن من يقول بالرد الماورائي يقدم تفسيراً للظاهرة المردودة. وفي ضوء هذا التعريف للرد نستطيع

(7) تشير القصدية في هذا السياق إلى ارتباط وتعلق الوعي (وكثير من الأحوال الذهنية) بموضوع خارج عنه. فعلى سبيل المثال، عندما أفكر ببرج إيفل، أو عندما أشعر بخوف من ثعبان يقترب مني، فإن حالة التفكير والشعور هنا مرتبطة بموضوع محدد. وبتعبير آخر، القصدية عبارة عن أشياء تحمل معلومات عن أشياء أخرى موجودة وغير موجودة (Weisberg, 2004)، فعندما أتخيل طائر العنقاء مثلاً، ففعل التخيل هنا متعلق بشيء، ويمثل (represents) هذا الشيء.

أن نعرف المدرسة الردية المادية بأنها المدرسة التي تقول بإمكانية رد الظواهر الذهنية إلى العمليات الحيوية العصبية، أو –بتعبير آخر– إن الخواص الذهنية مطابقة للخواص المادية وليست شيئاً مغايراً لها.

ومن المفاهيم التي تقتضي التوضيح مفهوم الرد الصلب (Ruthless Reductionism) الذي بسطه جون بِكل (John Bickle) في أبحاثه المتعددة التي تتناول البعد الميكروبيولوجي الجزيئي للوعي (Molecular Biology of Consciousness) وليس الخلوي الحيوي (cellular physiology) فحسب، ولهذا السبب اعتبر ما يقوم به من رد «رداً نفسياً عصبياً صلباً» (ruthless psychoneural reduction) (Bickle, 2012, p. 277) يعبر هذا المفهوم عن العملية التي يتم فيها النظر –تجريبياً ومختبرياً وليس فلسفياً– في الآليات الجزيئية للخبرة الواعية (molecular mechanism of conscious experience) (Bickle, 2012). وتعدّ تلك العملية من ضمن العمليات التي تستخدم في حقل الإدراك الجزيئي والخلوي (Molecular and Cellular Cognition)، وهو حقل جديد يهدف إلى استنتاج تفاسير من العمليات الإدراكية التي تدمج ما بين الآليات الخلوية، والجزيئية، والسلوكية (Bickle, 2012).

ومن المصطلحات المهمة في البحث مصطلح المدرسة الوظيفية. بحسب جوش وايزبيرغ (Josh Weisberg)، الوظيفية (Functionalism) هي المذهب الذي يعرّف العقل بما يقوم به لا بما هو مكوّن منه (Weisberg, 2004)، ومن هذه الجهة، تبحث الوظيفية في الخواص الوظيفية الجوهرية للعقل؛ أي في الأدوار والوظائف السببية التي يمتلكها كل كائن يتمتع بعقل (Buechner, 2008)، بغض النظر عن المادة التي تحققت فيها تلك الأدوار والوظائف. وبتعبير آخر، تعرّف الوظيفية الأحوال الذهنية بأنها تلك الأحوال التي تمتلك وظائف محددة، وتلك الوظائف عبارة عن علاقات سببية مع محفزات خارجية، وأحوال ذهنية أخرى، والسلوك الخارجي (Searle, 2004).

2- الرؤية الرّدية

الرؤية الرّدية المادية وفقاً لنظرية الهُويّة (Identity Theory) التقليدية: ما موقف المدرسة الرّدية المادية من الأحوال والظواهر الذهنية؟ وما نظرتها لعلاقتها بالبنية العصبية والكيميائية الحيوية للإنسان؟ هناك نظريات ردية مادية عدة حول طبيعة الظواهر الذهنية، من أهمها وأشهرها تلك التي طرحها الفيلسوف وعالم الأعصاب الوظيفي سمارت (J. J. C. Smart) في أواخر خمسينيات القرن الماضي، المسماة نظرية الهُويّة (Identity Theory)[8]. تؤكد تلك النظرية على أن «كل خاصية ذهنية هي خاصية مادية فقط (أي متطابقة معها)» (Heil, 2013, p. 75). و«جميع الأحوال الذهنية –بما في ذلك الوعي– هي حالات دماغية فقط، وليست شيئاً أكثر من ذلك» (Weisberg, 2004, p. 71). وبتعبير آخر، «العقول هي كائنات مادية (أدمغة) والخصائص الذهنية هي –كحقيقة تجريبية قابلة للاكتشاف– خصائص مادية للأدمغة والأنظمة العصبية» (Heil, 2013, p. 74). وجميع الأدلة التي تخص «الجسم البشري والعالم الطبيعي تشير إلى أن كل ما نقوم به –بما في ذلك تفكيرنا ومشاعرنا– أتى نتيجة بنيتنا الكيميائية الحيوية» (Weisberg, 2004, p. 72)، فلا يوجد شيء اسمه ظاهرة عقلية مستقلة عن المادة؛ إذ هي والمادة (العمليات الدماغية) شيء واحد بالمعنى الصارم للوحدة (Smart, 2002). يسمى هذا النمط من الوحدة (أو العينية) بين الخصائص الذهنية والخصائص المادية بالهُويّة النظرية (Theoretical Identity)[9]، وهو النمط المستخدم من قبل علماء الطبيعة. ومن هنا، حال الخصائص الذهنية يماثل حال الضوء عندما فسره علماء الفيزياء تفسيراً نظرياً على أنه موجة كهرومغناطيسية (Heil, 2013)؛ أي إن الضوء –في حقيقته– والموجة الكهرومغناطيسية شيء واحد. السؤال هنا: ما الداعي الرئيس الذي حدا بسمارت لتبني تلك النظرية؟ يجيب: معيار البساطة *(Simplicity)* والاقتصاد *(Parsimony)* (من المبادئ التي تشكل ما يعرف بنصل

(8) النوعية أو النمطية.

(9) لكنه –من وجهة نظري– رد وجودي ما ورائي في نهاية المطاف.

أوكام) (Smart, 2002)؛ إذ من الأبسط القول: إن العالم يتكون من شيء واحد (المادة) عوضاً عن شيئين (Weisberg, 2004)، كما أن تلك النظرية تعطينا صورة مبسطة عن العالم (Weisberg, 2004).

لأفصل مفهوم الرد الوارد في الأعلى بصورة ربما تتجاوز الإطار التقليدي لنظرية الهُويّة السابق ذكرها، وذلك للأهمية. بصورة عامة، هناك نوعان من الرد: الرد بمعنى التفسير، وهو عندما نحاول تفسير شيء عبر شيء آخر، كأن نحاول مثلاً تفسير الوعي، أو الكيفيات الذهنية، أو القصدية (intentionality) على أنها نشاط دماغي (Garson, 2015)، ويوصف هذا النوع من الرد بالرد المعرفي (Epistemic Reduction)[10]؛ ذلك لأنه يتعلق بمراحل المعرفة (أي تفسير شيء عن طريق شيء آخر من دون إطلاق حكم ما ورائي)، وفي المقام الأول يتعلق بالنظريات العلمية والنماذج والتصورات التي نشكلها (Garson, 2015). ومن أبرز الأمثلة على هذا النمط من الرد –وهو نمط سنشير إلى خطوطه العريضة لاحقاً– النمط الذي طرحه فيلسوف العلم أرنست ناجل (Ernest Nagel) المعروف باسم الرد البين نظري (Intertheoretic Reduction)؛ لأنه يتعلق برد نظرية إلى أخرى. وباختصار شديد، رد نظرية ما إلى أخرى يعني –وفقاً لناجل– بيان أن العبارات التي تتكون منها النظرية الأولى (المردودة) يمكن استنباطها من العبارات التي تتكون منها النظرية الثانية (المردودة إليها) (Garson, 2015)، ومن هذا المنظور تعدّ النظرية الثانية أكثر أساسية من النظرية الأولى. وينبغي الإشارة هنا إلى أن هذا النمط من الرد (الرد البين نظري) عادة ما يناقش في فلسفة العلم، وعليه إشكالات كثيرة هناك خارجة عن نطاق هذا البحث. النوع الآخر من الرد هو بدرجة ما أكثر مجازفة وعمقاً من النوع السابق، وذلك عندما نقوم بإعطاء تقرير عن الواقع؛ بغية تمييز ما هو واقعي وحقيقي عما هو ليس كذلك. يعرف هذا النوع من الرد بالرد الما ورائي (Metaphysical Reduction) (Garson, 2015)، أو –بحسب البعض– الرد الأنطولوجي (Ontological Reduction) (Searle, 2004). ومن الأمثلة على الرد

(10) أو الرد النظري (Searle, 1997).

الما ورائي، عد كل من: الظواهر الذهنية، والوعي، والقصدية، على أنها في حقيقتها تفاعلات كيميائية كهربائية تجري بين الخلايا العصبية، أو القول: إن الوعي ليس بشيء آخر غير الدماغ (Garson, 2015).

ومن الجدير بالانتباه في هذا المقام، الإشارة إلى أن الرد –كما نبهني أحد الفضلاء–[11] بصورته العامة غير المقيدة بالمادية ولا بلوازمها المعرفية والماورائية، ليس مقصوراً على الرّدّية المادية؛ إذ كل عملية يتم فيها تفسير وحل الأحوال الذهنية إلى عناصر، أو مكونات، أو عمليات أخرى تعدّ ردّية أيضاً. من هذا المنظور، يمكن عدّ الوظيفية مثلاً على أنها نوع من أنواع المدارس الرّدية؛ لأنها تقوم برد الذهني إلى بنى سببية (أو حسابية آلية) تتسم بطابع المدخلات – المخرجات (Block, 2007)؛ كما سنرى لاحقاً. لكن ينبغي التنبيه هنا على أن عملية الرد الذي تقوم به الوظيفية لا يعني إقصاءها للأحوال الذهنية (Block, 2007)، فهي ليست وظيفية فيما يتعلق بالأمور العقلية (mental)، بل «ملتزمة» (committed) بالمعنى الذي استخدمه كواين، بوجودها عندما تقوم بتطبيق عملية التسوير (quantification) المنطقي عليها (Block, 2007). من هنا، ينبغي الحذر عند إطلاق وصف الرّدية على المدرسة الوظيفية، والالتفات إلى عدم تمامها (أي إن الرد الذي تقوم به ليس رداً تاماً صرفاً بل مقيد ومحدود). لكن حتى هذا التقييد ينبغي –في نظري– أن يكون محل تحفظ، وربما عدم قبول إذا كان القصد منه الإطلاق والتعميم التام، لوجود نظريات وظيفية –أرمسترونغ (Armstrong, 1993) على سبيل المثال لا الحصر– ذات طابع ردي مادي بحت (أي تذهب إلى عينية الأحوال الذهنية والعمليات العصبية).

إضافة إلى المعنيين السابقين لمفهوم الرد، اقترح (أو استحدث) بعض فلاسفة علم الأحياء معاني أخرى متصلة –بصورة أو بأخرى– بهما، منها: الرد بمعنى التفسير الرّدي الميكانيكي (الآلي) (Reductive Mechanistic Explanation). ما معنى الآلية (Mechanism) هنا؟ المقصود بها هو: «ترتيب لأجزاء ينتج عنه مجموعة أكثر تعقيداً من

(11) الفاضل الأستاذ عبد الله الشمري، الباحث في فلسفة دانييل دينت (Daniel Dennett) الذهنية العصبية.

الآثار بصورة مطّردة في نظام كامل» (Godfrey-Smith, 2014, pp. 15-16). على سبيل المثال، عندما يحاول العلماء معرفة آلية المستوى الأدنى (lower-level mechanism) التي تولد الظاهرة (أو النظام بأسره) محل البحث (Godfrey-Smith, 2014)، كما هو الحال مثلاً عند محاولة تفسير الذاكرة المكانية (Spatial Memory) طبقاً لترتيب الخلايا في ذلك الجزء من الدماغ المسمى بالحصين (Hippocampus)، فإن ما يجري هنا هو محاولة إيجاد تفسير آلي لتلك الظاهرة (Garson, 2015).

ومن معاني الرد المستحدثة أيضاً الرد الصلب (Ruthless Reduction)(Bickle, 2012). يركز هذا النمط من الرد على الجانب المختبري (أي التجارب والتطبيقات التي يقوم بها علماء الأعصاب في المختبر) لفهم الظاهرة الذهنية (والوعي كذلك). بحسب هذا المعنى من الرد، تعمل التجارب والممارسات المختبرية التي يقوم بها عالم الأعصاب على توضيح أن صلات (أو روابط) العقل إلى الخلية (Mind-to-cell) مؤسسة على مقاربات تركز على التدخل الخلوي (أي التدخل على مستوى الخلية)، والجزيئي (Intervene cellularly/molecularly)، والمتابعة السلوكية (Schouten & De Jong, 2012). على سبيل المثال، إزاحة بعض الجينات أو التلاعب ببنى المستويات التحتية للنظام، وبعد ذلك تتبع الآثار السلوكية لهذا التدخل (Schouten & De Jong, 2012). من هنا، الآليات الخلوية والجزيئية تفسر –طبقاً لهذا التصور للرد– بصورة مباشرة المعطيات السلوكية (Schouten & De Jong, 2012)، وهذا هو معنى الرد في النهاية (Schouten & De Jong, 2012).

تجدر الإشارة هنا إلى أن معظم معاني الرد المذكورة في الفقرات السابقة، تنسجم مع الخط العام لنظرية الهُويّة التي عرضناها في الأعلى من حيث تفسير الذهني بالمادي، مع الاختلاف في طبيعة الآلية المادية التي تُعلل بها الظواهر الذهنية. هذا الاختلاف مهم جداً في نظري؛ لأنه قد يمكّن بعض المقاربات الرّدية المادية العلمية المعاصرة –والمستقبلية أيضاً– من تجاوز بعض الاعتراضات والمؤاخذات الفلسفية التي وجهت إلى نظرية الهُويّة بالصيغة التي طرحت من قبل سمارت، وبلاس، وفيغل، التي تعادل الأحوال الذهنية بالحالات الدماغية (أو الأحداث والحالات العصبية بصورة عامة).

بناء على ما سبق، ينبغي عدم حصر فكرة الهُويّة (أو الوحدة) التي تقترحها بعض المذاهب الرّدية المادية بالصيغة التي طرحها سمارت على سبيل المثال، على اعتبار وجود نظريات ونماذج أخرى –ربما سنشير إلى بعضها لاحقاً– تعبر عن تلك الفكرة بطرق مختلفة وبشكل أكثر انسجاماً مع التطورات والاكتشافات الحاصلة في علم الأعصاب، والدماغ، والأحياء التطورية؛ والكيمياء الحيوية؛ إذ كلما زادت معرفة العلماء ببنية الدماغ وآلية عمل سائر أجزاء الجهاز العصبي، والدور الذي يلعبه هذا الجهاز –إضافة إلى الجوانب الكيميائية الحيوية والعضوية في تأسيس وتكوين الظواهر الذهنية– ظهرت تصورات ونظريات جديدة مناسبة ومقبولة علمياً ومنهجياً، لكيفية رد تلك الظواهر إلى جذورها العصبية والكيميائية الحيوية.

لأعطي صورة إجمالية عن الفكرة الأساسية التي تميز المدارس الرّدّية المادية تلخص ما سبق. تذهب بعض تلك المدارس إلى إمكانية تفسير الذهني عن طريق المادي –أياً كان ما صدق المادي (شبكة عصبية، أو حالة دماغية، وما شابهها)–، لكن من دون إصدار أحكام ما ورائية وجودية. أما بعضها الآخر؛ فيقوم بتفسير الذهني عن طريق المادي (تفسير معرفي)، وفي الوقت نفسه يذهب إلى عينية الذهني والمادي؛ أي بواقعية المادي واعتبارية الذهني، إذا جاز لي التعبير (تفسير ما ورائي)، وذلك لكفاية هذا التفسير علمياً. يقول هربرت فيغل (Feigl, 2002): حالات الخبرة المباشرة التي تعيشها الكائنات البشرية الواعية متطابقة (Identical) مع جوانب معينة من العمليات العصبية.

أهم الاعتراضات على الرؤية المادية:

لأقوم الآن ببسط ثلاثة من أهم الاعتراضات التي أوردت على الرؤية الرّدية المادية.

كما سبق أن أشرت، تدعي المدارس الرّدية المادية تطابق الظواهر الذهنية مع العمليات العصبية الكيميائية الحيوية التي تجري داخل الدماغ والجهاز العصبي؛ ومن ثم إمكانية ردها (تلك الظواهر) رداً علمياً إلى تلك العمليات والمكونات. وبالرجوع إلى بعض الباحثين، هناك شروط عدة ينبغي أن تلبيها عملية الرد كي

تعد ناجحة، بحسب المعايير العلمية، من جملتها: (1) تطابق الظاهرة المردودة مع الظاهرة المردودة إليها (Buechner, 2008). فعلى سبيل المثال، الحرارة (الظاهرة المردودة) متطابقة مع الحركة الجزيئية المتوسطة (الظاهرة التي تم رد ظاهرة الحرارة إليها (Buechner, 2008). (2) تقريباً، يجب أن تخضع الظاهرة التي تم رد الظاهرة محل النظر إليها لنفس القوانين التي تحكم الظاهرة المردودة (Buechner, 2008). (3) هناك علاقة شبه قانونية (Law-like) بين الظاهرة المردودة والظاهرة المردودة إليها؛ مما يعني أنه لا يمكن أن توجد الظاهرة المردودة في ظروف مادية ممكنة من دون الظاهرة المردودة إليها (Buechner, 2008).(4) ينبغي أن تكون الظاهرة المردودة إليها نوعاً طبيعياً (Natural Kind)؛ أي نوعاً حاضراً في الطبيعة، كالشجرة والأكسجين (Buechner, 2008).

وإلى جانب المعايير المذكورة، هناك مبدأ ينبغي –بحسب المعترضين– أن يراعيه المتمسك بنظرية الرد المادي الصارم، مشتق من المبدأ المسمى مبدأ ليبنتز (المسمى مبدأ الهُويّة). فبحسب هذا المبدأ: إذا كان أ مطابقاً لـ ب، فهو ليس مطابقاً لـ ج إلا إذا كان ب وج متطابقين (Buechner, 2008). وبتعبير آخر، «إذا كان أ = ب، إذن الاتحاد بين أ وب ضروري؛ ومن ثم كل خاصية ذاتية لأحدهما يجب أن تكون خاصية ذاتية للآخر» (Kripke, 1997, p. 446).

وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار هذا المبدأ –إضافة إلى الشروط السابقة التي يتوقف عليها نجاح عملية الرد– وطبقناه على نظرية الهُويّة التي يقول بها أصحاب النظرية الرّدية المادية، فإنها –بحسب المخالفين لهم– لن تصمد. بيان ذلك:

لنفترض أن أ يرمز إلى حالة الألم، بينما ب يرمز إلى دماغ الإنسان، وج يرمز إلى دماغ الأخطبوط. يلاحظ هنا أن ب ليس مطابقاً لـ ج، لكن مع هذا أ (حالة الألم) متحقق (Realized) مادياً في ب وج معاً. السؤال الذي يطرح نفسه هنا: هل أ مطابق لـ ب أو ج؟ إن تعيين التطابق مع حالة مادية محددة جوهري وضروري في هذا المقام حتى لا تفقد نظرية الهُويّة معناها (Buechner, 2008). فلا يصح –وفقاً للمعايير العلمية المذكورة في الأعلى ومبدأ الهُويّة سالف الذكر أيضاً– أن يأخذ

التطابق بين الحالة الذهنية (الألم) والحالات المادية المختلفة صيغة شرطية منفصلة (Buechner, 2008)؛ إذ لا معنى للقول مثلاً: إن الضوء مطابق للموجات الكهرومغناطيسية، أو لشيء آخر مختلف عن الموجات الكهرومغناطيسية (Buechner, 2008). وعليه؛ بما أنه يمكن للحالة الذهنية أن تتحقق في نماذج مختلفة من المادة لا يوجد رابط قانوني بينها (Buechner, 2008)، فهذا يعني أنها غير مختصة بمادة دون أخرى، وبذا تسقط النظرية التي تقول بتطابق الحالة الذهنية مع الحالة الدماغية (Putnam, 2002). وإلى الفكرة نفسها تقريباً يشير شاؤول كربك (Kripke, 1997) عندما لمح –بناء على نظريته المعنونة «التسميات الصارمة» (Rigid Designators)[12]– إلى أن علاقة الوحدة (أو التطابق) بين الحالة الذهنية والحالة المادية هي علاقة إمكان (Contingency)، وليس ضرورة كما يذهب أتباع نظرية الهُويّة؛ على اعتبار إمكانية وجود الحالة المادية (خلل في الألياف سي (C-fiber stimulation)) من دون الحالة الذهنية (Kripke, 1997)، فلو كانت العلاقة بينهما علاقة وحدة (Identity) لما أمكن تصور انفكاك وجودي بينهما؛ لأن «الاتحاد ليس بعلاقة بين أشياء ترتبط فيما بينها بصورة ممكنة» (Kripke, 1997, p. 448). يقول كربك: «بالإضافة إلى خلق المحفزات الليفية (أو الخيطية) سي التي تتوافق مع الألم، أو التي يشعر بها كألم، هناك أمر آخر وجب على الله القيام به، ألا وهو جعل المخلوقات تشعر بتلك المحفزات على أنها ألم ... إذا كانت تلك الأشياء تقع ضمن قدرته، فهذا يعني أن العلاقة بين الألم الذي خلقه الله والمحفزات الليفية سي لا يمكن أن تكون علاقة وحدة (أو عينية). وإذا كان الأمر كذلك، فهذا يعني أنه يمكن لتلك المحفزات أن توجد من دون مصاحبتها للألم. وبما أن الألم والمحفزات الليفية سي هي تسميات صارمة، فإن تلك الحقيقة تدل على أن العلاقة بين الظاهرتين ليست بعلاقة وحدة وعينية» (Kripke, 1997, p. 449).

وعن الاعتراض المبني على مبدأ الهُويّة تفرع اعتراض آخر أسهم في بزوغ الوظيفية وانتشارها، وسنتناول مضمونه بشيء من التفصيل في القسم القادم.

(12) بحسب موسوعة ستانفورد، الاسم الصارم «هو الاسم الذي يشير إلى نفس الشيء في جميع العوالم الممكنة التي يوجد فيها هذا الشيء، ولا يشير إلى [شيء] غيره».

يقوم هذا الاعتراض على الإمكانية الواقعية والنظرية لتحقق الظاهرة الذهنية في أكثر من «منظومة» مادية. وبتعبير آخر، الرّدية المادية باعتبارها الأحوال الذهنية عين الأحوال العصبية البشرية وليست أمراً متحققاً (أو يمكن تحققه) في كائنات أخرى، نظرية مفرطة في الذاتية (Chauvinist). هي مفرطة في الذاتية؛ لأنها –بحسب المعترضين عليها– تمنع امتلاك أنظمة أخرى (كائنات أخرى غير البشر) للخصائص الذهنية التي (تلك الأنظمة الأخرى) تمتلكها بالفعل (Block, 2002)، وإذا كانت الأحوال أو الخصائص الذهنية متحققة بالفعل في أكثر من منظومة مادية، فهذا يعني بطلان نظرية الهُويّة؛ أي فساد القول بأن الذهني هو عين المادي.

ويرتكز الاعتراض الثالث –الذي هو عمدة الاعتراضات في رأيي– الذي وجه إلى أتباع المسلك الرّدي المادي على نقطة مهمة، وهي نقطة سأتناولها بشيء من التفصيل لاحقاً، خاض واحتار فيها الكثير من فلاسفة الذهن، وأخذت حيزاً كبيراً من أبحاثهم وجهودهم إلى درجة أنها عدّت هي والوعي عائقاً حقيقياً أمام كل محاولة لرد الظواهر الذهنية إلى عناصر، ومكونات، وعوامل مادية محضة. كما عدّت منطلقاً لتكوين نظريات عديدة ومختلفة حول طبيعة العلاقة بين الذهني والمادي، بعضها قريب من الثنائية، وبعضها غموضي *(Mysterianism)*،[13] وبعضها إقصائي *(Eliminativism)*،[14] وبعضها لا ردي

(13) التسمية الغموضية (Mysterianism) من وضع الفيلسوف أوين فلانغن (Owen Flanagan). يذهب المذهب الغموضي إلى القول: «إن العلاقة بين الوعي والعالم المادي هي علاقة غامضة بالنسبة إلينا» (Weisberg, 2004). ينقسم المذهب الغموضي إلى قسمين: الأول، ويسمى الغموضية الدائمة (Permanent Mysterianism)، يدعي أن هذا الغموض لن يرتفع أبداً. أما القسم الثاني، ويسمى الغموضية المؤقتة (Temporary Mysterianism)؛ فيذهب إلى أننا لا نستطيع فهم تلك العلاقة في الوقت الحاضر، لكن ذلك ممكن في المستقبل (Weisberg, 2004).

(14) يلغي المسلك الإقصائي الخبرة الذاتية الظاهراتية، والأحوال الذهنية (كالاعتقادات والرغبات والمشاعر)، والوعي من الوجود؛ (أي لا يعدها أموراً تنتمي إلى الواقع) (Searle, 2004)؛ إذ هي –بحسب تلك المدرسة– مجرد أمور نفترضها بغية تفسير سلوك الآخرين لا أكثر. ومن هذا الاعتبار هي تشبه الإلكترونات أو القوة الكهرومغناطيسية، وغيرها من كائنات نظرية، يفترضها علم الفيزياء ولا يعتقد بوجودها (Searle, 2004).

(Nonreductive)[15] مثل: الروحية الشاملة *(Panpsychism)*[16]، والروحية الأولية الشاملة *(Panprotopsychism)*[17]، والواحدية المحايدة *(Neutral Monism)*[18]، والواحدية الواقعية *(Realistic Monism)*[19]. تتعلق تلك النقطة بالخبرة الذهنية التي يعيشها أو يمر بها الوعي في أثناء مروره بها (Heil, 2013)، ويمكن التعبير عنها بالجملة الشهيرة التي صاغها الفيلسوف توماس ناجل (Thomas Nagel): «كيف هو الشعور [شعور أي كائن حي يتمتع بقدر من الوعي] بحالة س؟» (What is like to be an X) (Nagel, 1997, p. 520)؛ أي كيف هو الشعور بالألم؟ على سبيل المثال؛ إذ تتميز الحالة الذهنية التي يمر بها الوعي في لحظة ما (الشعور أو المرور بتجربة الألم، على سبيل المثال) بخاصية معينة متعذر ردها –بحسب الكثيرين من فلاسفة الذهن– رداً مادياً بحتاً (Nagel, 1997). وبتعبير آخر، يبدو أنه من الصعب رد الخصائص الذهنية؛ (أي

(15) ينبغي الإشارة هنا –تجنباً لسوء فهم ما سيأتي من تعليقات في الهامش– إلى أن هناك انقساماً داخل المسلك اللا ردي بخصوص الوعي: أهو رئيس بحيث لا يمكن رده إلى عنصر آخر، أم هو شيء انبثق من مكون أو عنصر أكثر أصالة؟ من تبنى القول الثاني لم يرجع الوعي إلى عنصر مادي –كما تذهب المدرسة المادية– بل إلى عنصر إما محايد، أو يجمع بين المادي والظاهراتي. ومن هذا المنظور، لا يعد –على الأرجح– القائل بهذا الرأي ردياً بالمعنى الذي شرحناه في الأعلى (أي رد الذهني إلى مادي رداً ما ورائياً أو معرفياً).

(16) تدعي الروحية الشاملة أن هناك عنصراً ظاهراتياً رئيساً لا يمكن رده (Irreducible phenomenal element) في قلب المادة، وهذا العنصر أساسي وموجود في كل مكان. بناء عليه؛ أينما توجد مادة فهناك مقدار من الوعي (Weisberg, 2004).

(17) بخلاف الروحية الشاملة، تنكر الروحية الأولية الشاملة وجود ظاهراتية أينما توجد مادة. فما هو موجود –على الأصح– هو مكون (أولي) خاص (a special ingredient for phenomenality) للظاهراتية أينما توجد مادة. فعند وجود كتلة (أو تكدس) مناسبة من الظاهراتية الأولية، عندها فقط –وليس قبل ذلك– سنحصل على وعي تام (Weisberg, 2004).

(18) تذهب الواحدية المحايدة إلى وجود شيء أكثر أساسية من المادة والوعي، وكلاهما صنع أو انبثق منه. وهذا الشيء الرئيس محايد بين العقل الواعي والمادة، وكلاهما يرد إليه (Weisberg, 2004).

(19) هذا المذهب من وضع الفيلسوف Galen Strawson، وهو مطابق تماماً للروحية الشاملة الآنفة الذكر. يقر هذا المذهب بواقعية الخبرة الظاهراتية وأصالتها؛ أي عدم انبثاقها وقيامها على شيء آخر أكثر أساسية منها. كما يقر بأصالة شيء واحد فقط يتكون منه كل من الوعي والدماغ. فلا ثنائية هنا، بل واحدية واقعية تمتزج فيها الخواص الظاهراتية والمادية. وبتعبير آخر، كل شيء في الوجود يحتوي على مقدار من الوعي (Weisberg, 2004).

الخصائص التي تميز الخبرة الذهنية الواعية المعيشة) إلى خصائص دماغية عصبية؛ إذ المرور بالتجربة شيء، وملاحظة ما يجري في أثناء المرور بتلك التجربة من عمليات مادية من قبل طرف ثالث (العالم في المختبر، على سبيل المثال) شيء آخر (Heil, 2013).

سأكتفي بهذا القدر من الاعتراضات التي تم إيرادها على الرّدية المادية؛ لأسباب ثلاثة: أولاً، ارتباط الاعتراض الأول بالتيار الوظيفي الآتي بيانه. ثانياً، سيتم تناول الفكرة التي قام عليها الاعتراض الثاني (أي الخبرة الواعية المعيشة) بشيء من التفصيل في القسم القادم من هذا البحث. ثالثاً، إنه بحسب استقرائي لمجمل الاعتراضات الأخرى التي وجهت إلى المدرسة المادية، جميعها يرجع –بصورة أو بأخرى– إلى واحد من الاعتراضات الثلاثة.

3 - المدرسة الوظيفية

المدرسة الوظيفية *(Functionalism)*[20]: المدرسة الوظيفية عنوان عام تندرج تحته مدارس ومذاهب فلسفية عدة، بعضها يقترب من المنحى الرّدّي المادي إلى حد كبير (أرمسترونغ، وسمارت (Block, 2007))، لكن معظمها لا يحصر نفسه ضمن الإطار المادي بوصفه شرطاً ضرورياً وكافياً لتحقق الحالة الذهنية، التي يعدونها «حالة آلية ذاتية التشغيل» (an automaton state) يمكن أن تتحقق منطقياً وواقعياً في نظم مادية وغير مادية (على تقدير وجودها). وما يجمع تلك المدارس المختلفة ويضعها تحت عنوان الوظيفية هو بحثها عن خصائص وظيفية ذاتية للذهن والأحوال الذهنية؛ أي هي تفهم تلك الأحوال بحسب دورها ووظائفها السببية أو الحسابية الميكانيكية التي يمتلكها كل من يمتلك عقلاً (Buechner, 2008)؛ بغض النظر عن الوسط المادي الذي تتحقق فيه. وتلك الهيئة الوظيفية للظواهر الذهنية (أي دورها السببي أو الحسابي) هي –بحسب الرؤية الوظيفية– مناط عدم اتحادها وتوقفها على مادة معينة؛ ومن ثم قابليتها للتحقق في أكثر من منظومة أو نماذج مادية. فالوظيفة (Function) عندهم، هي ما يميز الأحوال والخصائص والأنماط الذهنية وليس المادة التحتية (substrate) التي تتحقق فيها (Van Gulick, 2009).

(20) لاحظت –وربما أكون مخطئاً في ذلك– عدم وجود ضابط اصطلاحي لأقسام المدرسة الوظيفية وللنظريات المطروحة فيها. هذه الملاحظة تسري على معظم المدارس الأخرى في حقل فلسفة الذهن.

تجـدر الإشارة هنـا إلـى وجـود تبـاين بين الوظيفييـن أنفسهم فـي اختيـار محـل أو –بتعبير أدق– مستوى تعيين الأدوار الوظيفية والسببية (Buechner, 2008)، وهو تبـاين أدى إلى انقسام المدرسة الوظيفية إلى قسمين رئيسين[21]: الوظيفية الحسابية (Computational Functionalism)؛ والوظيفية النظرية السببيـة (أو الما ورائيـة) (Causal-Theoretical Functionalism)؛ حيـث تذهـب الأولـى إلـى أن المستـوى الملائـم للوصف الوظيفي الحسابي موجود فـي مستـوى «معالجـة المعلومـات» (information processor)؛ أي تعتبر الذهن بمثابة برنـامج الحاسب الآلـي. فـي حين ترى المدرسة الأخرى أن هذا المستوى يأخذ شكل شبكة سببية (causal network) ترتبط فيها حالات المدخلات، والأحوال الذهنية، وحالات المخرجات بصورة سببية (Buechner, 2008).

لكن على أي من الأحوال الذهنية تنطبق الوظيفية؟ جميعها أم بعضها[22]؟وبأي معنى ينبغي أن يفهم الدور الوظيفي في سياقنا هذا؟ بالمعنى الرياضي، أم السببي، أم الغائي؟ وكيف ينبغي فهم طبيعة العلاقة بين الأحوال الذهنية والوظيفية؟ بالمعنى الأنطولوجي (القول باتحاد الذهني بالمادي أو بانفكاكهما مثلاً)[23]، أم التحليلي

(21) سأتناول هاتين المدرستين بشيء من التفصيل لاحقاً.

(22) بحسب بلوك (Block, 2007)، حتى يمكن الدفاع عنها ينبغي حصر تطبيق الرؤية الوظيفية على فئة من الأحوال الذهنية وليس كلها.

(23) البعض –ند بلوك (Block, 2007) مثلاً– يذهب إلى أن الوظيفية –وبعكس المدرسة المادية والسلوكية (تعد مادية أيضاً)– لا تركز على بيان المقام الوجودي للأحوال الذهنية، بل بما يعطي كل حالة ذهنية هويتها الخاصة بها، أي هي (الوظيفية) تحاول إخبارنا –على سبيل المثال– ما الشيء الذي تشترك فيه جميع الآلام بحيث يجعلها تتصف بصفة الألم. فمبحثها هنا –بحسب بلوك– ذو طبيعة ما ورائية وليس وجودية. أود التنبيه هنا على أن مباحث الوجود قد تختلط أحياناً بمباحث ما وراء الطبيعة؛ حيث إن بعض النظريات التي تطرح في مبحث ما وراء الطبيعة قد تؤثر على كيفية التعاطي مع بعض المسائل والمطالب المطروحة في حقل الوجود أو العكس. فعلى سبيل المثال، القول بامتلاك الظواهر الذهنية خاصية التحقق المتعدد يعني نفياً لواقعية اتحادها بالمادي، وهذا هو حكم وجودي –في رأيي– وليس ما ورائياً نظرياً فحسب، لذا ينبغي التحوط في قبول ما تفضل به الفيلسوف بلوك، كما ينبغي التنبيه أيضاً على أن بلوك يبدو أنه يميز الدعوى الأنطولوجية عن الدعوى الما ورائية (Block, 2007)، وهو يخالف ما طرحناه أثناء عرضنا لمعاني الرد.

(تحليل التصورات الذهنية)، أم البراغماتي (الاستعمال)؛ (أي من حيث الفائدة العملية في النظر إلى الأحوال الذهنية من زاوية نظرية علمية وظيفية) (Van Gulick, 2009)؟ لم يتفق أتباع المدرسة الوظيفية على إجابة واحدة، بل اختلفوا فيما بينهم اختلافاً أدى إلى ظهور مدارس وظيفية متعددة ومتنوعة، ليس هنا محل الخوض فيها لضيق المجال.

البعض يرجع –وهي دعوى محل نظر عند البعض– أصل الوظيفية إلى أرسطو (Block, 2007) وكتاباته حول طبيعة النفس على وجه التحديد[24]. لكن كتيار فلسفي نفسي رسمي، معين الاسم، وواضح المعالم، تؤرخ بداياته في ستينيات القرن العشرين على يد هيلاري بتنام وفودور (Block, 2007). وبحسب بلوك (2007)، تأثرت الوظيفية بتحليلات سمارت، وبنظرية فتجنشتين في المعنى، وأضيف إليها المدرسة السلوكية أيضاً.

طبقاً لبلوك (2007)، تنقسم الوظيفية إلى ثلاثة أنماط عامة، تتفرع منها تيارات ونظريات وظيفية أكثر عمقاً، وتحليلاً، وتخصيصاً:

(1) **التحليل الوظيفي (Functional Analysis)**: التحليل الوظيفي نمط من أنماط التفسير، الذي هو خطة بحث يتم فيها تفكيك النظام إلى أجزائه التي تكونه. وبتعبير آخر، يحاول التحليل الوظيفي تفسير عمل النظام موضع النظر بناء على قدرات الأجزاء المكونة له، والكيفية التي تم فيها دمج تلك الأجزاء بعضها ببعض. مثال على ذلك، تفسير عدد السيارات التي ينتجها مصنع السيارات عبر النظر إلى قدرات خطوط التجميع، والموظفين، والآلات، والكيفية التي تنظم بها تلك المكونات.

(2) **الوظيفية الحاسوبية التمثيلية (Computation-Representation Functionalism)**: يمثل هذا النمط من الوظيفية حالة خاصة من النمط السابق من جهة أن التفسير الوظيفي المطبق هنا نفسي الطابع. وترى الوظيفية الحاسوبية أن الذهن بالنسبة إلى الدماغ بمثابة البرنامج للحاسب الآلي (Computer program)، كمعالج للمعلومات

(24) سأناقش تلك الدعوى في المقام المناسب.

(Information Processor) بتعبير أدق (Buechner, 2008). وتقوم الوظيفية الحاسوبية بتفسير الأحوال الذهنية على أنها تمثل (Represent) العالم بصورة منظمة عبر لغة الفكر (The Language of Thought)، كما أنها تفسر العمليات النفسية على أنها حسابات تستخدم فيها تلك الممثلات.

ومن أهم المدافعين عن هذا النمط من الوظيفية الفيلسوف جيري فودور (Jerry Fodor). يعد فودور الذهن بمثابة معالج للرموز (Heil, 2013)، حاله في ذلك حال الحاسب الآلي. فمن وجهة نظره، الذهن نظام من الرموز التي تعمل «كتصورات ذهنية» (Heil, 2013, p. 110). وتشكل تلك الرموز ما يسميه فودور بلغة الفكر (Language of Thought)، التي هي شفرة حيوية ثابتة (biological fixed code) مماثلة للشفرة الآلية المثبتة في أجهزة الحواسيب الآلية العادية (Heil, 2013).

(3) **الوظيفية الما ورائية (Metaphysical Functionalism)**[25]: يهتم هذا النمط من الوظيفية بطبيعة الذهن وليس تقديم تفسير نفساني، كما هو الحال مع النمط السابق، على الرغم من تشابههما في التصور العام للأداء الوظيفي الذي هو مدخلات، وأحوال ذهنية، ومخرجات. السؤال الذي تهتم الوظيفية الما ورائية بالإجابة عنه هو: ما طبيعة الأحوال الذهنية؟ (على سبيل المثال: ما طبيعة الألم؟ أو ما الذي يجعل الألم ألماً؟). الإجابة التي تطرحها تلك المدرسة هي: الأحوال الذهنية ما هي إلا أحوال وظيفية (Block, 2007). وينبه ند بلوك على أن الوظيفية الما ورائية تهتم بأنماط أو أنواع (types) الأحوال الذهنية، وليس أفرادها أو مصاديقها (tokens) المشخصة؛ أي هي تهتم بالألم الكلي وليس بألم معين (أفراد أو مصاديق الألم، إن صح التعبير). واهتمامها بالنوع عوضاً عن الفرد نابع من محاولتها في الإجابة عن سؤال مهم آخر هو: ما الشيء المشترك بين جميع الآلام الذي بمقتضاه تتصف بصفة الألم؟ الإجابة التي تطرحها الوظيفية، هي أن ما هو مشترك بين جميع الآلام هو خاصيتها الوظيفية وليس خاصيتها المادية، كما تدعي المدارس الرّدية المادية

(25) أو الوظيفية النظرية السببية (Causal-Theoretical Functionalism)، أو –بحسب جون هايل (2013)– الوظيفية الأنطولوجية (Ontological Functionalism).

(Block, 2007). ومن هنا، لا مانع لدى كثير من أتباع المدرسة الوظيفية من عد كل ألم جزئي متشخص متحققاً في حالة مادية أو حدث. أما بوصفها نمطاً؛ فهم يمنعون رد الأحوال الذهنية إلى عنصر مادي محدد؛ أي هي غير مقيدة بمادة معينة؛ لأن الطبيعة الوظيفية لتلك الأحوال يجعلها في مرتبة أعلى من المرتبة المادية أو المستوى، وما يجعلها في مرتبة أعلى هو إمكانية تحققها وظيفياً في أنظمة مادية مختلفة مع بقاء صورتها ودورها الوظيفي. لكن ما المقصود بالدور الوظيفي للأحوال الذهنية؟ ترى المدرسة الوظيفية الما ورائية الأحوال الذهنية من خلال علاقاتها السببية مع المنبهات الحسية (مدخلات)، والمخرجات السلوكية، والأحوال الذهنية الأخرى (Block, 2007). فحال الأحوال الذهنية –بحسب هذا التفسير– كحال مفحم السيارة (الكاربوريتر) مثلاً. فمفحم السيارة يطلق على شيء قادر على خلط الوقود بالهواء (سمة وظيفية) داخل محرك الاحتراق (Block, 2007). وعليه؛ مفحم السيارة هو مفهوم وظيفي (Block, 2007)، وهو مفهوم يمكن أن يتحقق وظيفياً في أكثر من عنصر مادي؛ كالحديد، والنحاس، والألمنيوم، إلخ. مثال آخر، تفسر الوظيفية الما ورائية الألم تفسيراً وظيفياً، وذلك بناء على نزعته في أن يكون نتيجة لضرر أصاب نسيج الجلد، وعلى نزعته في التسبب بالرغبة في التخلص منه، وعلى نزعته في التسبب بالقيام بإبعاد العضو المتضرر عن مصدر الضرر (Block, 2007).

ومن المهم التذكير هنا بوجود أكثر من نمط للوظيفية الما ورائية؛ إذ بعضها (بالصيغة التي تبناها أرمسترونغ، ولويس، وسمارت) يقر باحتمال صحة الرؤية المادية للأحوال الذهنية، أما البعض الآخر (بالصيغة التي تبناها بتنام وفودور)؛ فيذهب إلى احتمال فسادها (Block, 2007).

وما يجمع الأنماط الثلاثة المذكورة هو وجود نوع من أنواع الصلة بينها وبين مفهوم آلة تورنغ (Turing Machine) (Block, 2007)، لكن هذا لا يمنع من وجود صور من الوظيفية لا تقوم على هذا المفهوم (Block, 2007)؛ إذ عادة ما تعادل (identifies) الوظيفية الما ورائية الأحوال الذهنية بجدول الحالات (Table States)

لآلة تورنغ (Block, 2007)[26]. أما الوظيفية الحسابية التمثيلية؛ فترى –كما أشرنا في الأعلى– التفسير النفسي كأمر متماثل مع تزويد العقل ببرنامج الحاسب الآلي (Block, 2007)، فغايتها تقديم تحليل وظيفي للقدرات الذهنية عبر تجزئتها وتفكيكها إلى العمليات الآلية الميكانيكية التي تكونها (Block, 2007). أما إذا كانت تلك العمليات خوارزمية الطابع[27]، كما يفترض البعض؛ فيمكن حسابها بناء على مفهوم تورنغ (Block, 2007). أما فيما يتعلق بالتحليل الوظيفي؛ فتكمن العلاقة بينه وبين آلة تورنغ في اعتباره القول بأن الذهن برنامج الحاسب الآلي يمثل –كما أشرت– حالة خاصة من التحليل الوظيفي (Block, 2007).

وفي ما يخص آلة تورنغ، فإن عملها يتحدد بواسطة وظيفتين: وظيفة تجري من مدخلات (inputs) وحالات (states) إلى مخرجات (outputs)، وأخرى من مدخلات وحالات إلى حالات أخرى (ينبغي الإشارة هنا إلى أن تلك الآلة تحتوي على عدد متناهٍ من الحالات، والمدخلات، والمخرجات). وتقوم الوظيفتان المذكورتان بتحديد مجموعة (set) من الشرطيات (set of conditionals)؛ أي مجموعة تأخذ صورة القضية الشرطية: إذا كذا فكذا، واحدة لكل مركب مؤلف من مدخل وحالة. وتأخذ الشرطيات الصورة الآتية: إذا كانت الآلة في حالة س واستقبلت مدخل ج، فسوف يصدر عنها مخرج د، ومن ثم تنتقل إلى حالة س (Block, 2007). ومن الممكن مراجعة الجدول الذي يعبر عن مجموعة الشرطيات في (Block, 2007). لأوضح تلك العمليات الوظيفية التي تعتبر الأحوال الذهنية وسائط سببية ضمن آلة تورنغ عبر المثال البسيط الآتي: فبحسب التفسير الآلي الوظيفي للحالة الذهنية، الألم هو الخاصية التي يمتلكها الشخص عندما يكون في حالة سببتها وخزة الإبرة (مدخل) مثلاً، وهذه الحالة تسببت بدورها في إصدار صوت عال (مخرج) (Block, 2007)[28]، أو ربما في التسبب في الدخول في حالة من الفزع (حالة أخرى)؛ ومن ثم الصراخ (مخرج). بناء عليه؛ عرفت الوظيفية الألم على أنه: «خاصية سببية مجردة، مقيدة

(26) ينبغي التنبيه هنا على وجود أكثر من صيغة للوظيفية الآلية (Block, 2007).

(27) أي عمليات حسابية تنتهي بعد القيام بخطوات معينة وفقاً لقواعد ومبادئ محددة.

(28) الحالة الذهنية هنا (أي حالة الألم) وسط بين المدخل (وخزة الإبرة) والمخرج (الصراخ) (سلوك).

بالعالم الحقيقي، عبر علاقاتها المباشرة وغير المباشرة بالمدخلات والمخرجات» (Block, 2007, p. 32). هذا الفهم السببي الآلي للأحوال الذهنية القائم على فكرة المدخلات والمخرجات، أدى من جانب إلى انعتاق الحالة الذهنية من المادة وعدم قيامها وجودياً عليها، ومن جانب آخر إلى سعة نطاقها الوجودي وإطلاقها (أو إمكان انطباقها) على كل نموذج تحققت فيه حالة المدخلات والمخرجات، وهو ما ولد بدوره جملة من المشكلات والاعتراضات الفلسفية سنشير إلى بعضها بعد قليل.

نستفيد مما تقدم، أن الوظيفية –مع بعض الاستثناءات القليلة– لا تقول باتحاد الذهن (وبالتبع الأحوال والخصائص الذهنية) بالمادة وعدم انفكاكه الوجودي عنها، كما يذهب أتباع التيار الرّدي المادي القائلون بنظرية الهُويّة، أو ما يقاربها من حيث المضمون، كما أن الذهن ليس بشيء مجرد مستقل عن المنظومة التي يتحقق فيها، كما تذهب الثنائية الديكارتية، بل هو وظيفة تتمتع –كما لاحظنا آنفاً– بخاصية التحقق المتعدد في أكثر من منظومة مادية، أو حتى غير مادية (على تقدير وجودها). بناء عليه؛ الوظيفية الما ورائية ليست بالمادية الصرفة –وإن كانت بعض نماذجها تذهب إلى تصور قريب أو مطابق للموقف الرّدي المادي–، ولا بالثنائية الديكارتية الخالصة، لكنها –أو القسم الأعظم منها– أيضاً ليست بردية صرفة، بل ضد ردية *(anti-reductionist)* بحسب رأي البعض (Heil, 2013)[29]، على اعتبار تمسكها بوجود أشياء وخصائص (الأحوال والخصائص الذهنية) في عالم الطبيعة من المتعذر ردها –من وجهة نظرهم– إلى أحداث ومستويات مادية.

أهم الاعتراضات على المدرسة الوظيفية:

على الرغم من المقام الرفيع الذي تحتله الرؤية الوظيفية –أو بعض النظريات التي انبثقت منها أو بنيت على بعض من أهم تصوراتها– عند المشتغلين في حقل فلسفة الذهن، والنفس، وعلوم الإدراك، والأعصاب، وربما غيرها من علوم، فإنها لم تسلم من الانتقادات حتى من قبل مؤسسها هيلاري بتنام. إليكم مجموعة من تلك الاعتراضات التي سنتناول بعضاً منها بصورة نقدية في المراحل الأخيرة من هذا البحث؛ كونها تجري أيضاً على الرّدية المادية.

(29) أو –بتعبير آخر– لا ردية (Nonreductive) في بعض صورها على الأقل.

من الاعتراضات التي وجهت إلى الرؤية الوظيفية الاعتراض المعروف بحجة الابتذال (Triviality argument). تدعي تلك الحجة أن التعريف الذي بسطته الرؤية الوظيفية للوظيفة كوصف لطبيعة الأحوال الذهنية غير جامع ولا مانع –أو متحرر بحسب تعبير بلوك (2007)–؛ لخلوه من ذكر الصفات الذاتية الأساسية التي تميز التنظيم، والدور الوظيفي المنسوب للعقل أو الأحوال الذهنية والاكتفاء –عوضاً عن ذلك– بذكر سمات عامة غير محددة؛ مما سمح باتصاف الأشياء (كالحجر، والطاولة، والشجرة) التي تفتقر إلى الذهنية بصفة العقلية، لانطباق محتوى التعريف عليه، وتوضيح ذلك:

بحسب جف بوشنر (Buechner, 2008)، الفكرة الأساسية التي تقف وراء حجة الابتذال هي أن أي تعريف لما يجعل من نظام مادي يحقق عملية حسابية، سيجعل التعريف قابلاً للانطباق على أي نظام مادي، وليس الذهن البشري فقط. وبتعبير آخر، سعة نطاق التعريف الذي تقدمه المدرسة الوظيفية للوظيفة يجعل أي شيء قادراً على حساب أي وظيفة. القبول بتلك النتيجة سيجعل من علم الإدراك علماً بلا فائدة، فلا داعي لهذا العلم أن يقوم باختبار النظرية إذا كان باستطاعة العقل القيام بحساب كل وظيفة إدراكية. وبتعبير أكثر وضوحاً، تذهب جميع نظريات الإدراك إلى أن العقل البشري يقوم بحساب مجموعة محددة من الوظائف الإدراكية، لكن إذا كان العقل البشري يقوم بحساب كل وظيفة إدراكية، فهذا يعني أن جميع النظريات الإدراكية يجب أن تكون صادقة، بما في ذلك تلك التي يناقض بعضها الآخر. وبالمثل، إذا كان كل شيء يقوم بحساب كل وظيفة، فهذا يعني أن كل شيء مادي يحقق مادياً كل تنظيم أو دور وظيفي. بناء عليه، كل شيء سيمتلك تنظيماً وظيفياً مماثلاً للذهن البشري (Buechner, 2008).

بلوك (Block, 2007) من جهته طرح إشكالاً آخر على الوظيفية (الإشكال المعروف باسم حجة شعب الصين) ركز فيه على خلو الأشياء التي تحقق فيها الدور الوظيفي من الأحوال والكيفيات الذهنية. فبحسب بلوك، من الممكن لنا تخيل مليار صيني وهم يقومون معاً بالدور الوظيفي نفسه، وبالخطوات الوظيفية نفسها التي تقوم بها

مليار خلية عصبية في الدماغ، لكن مع هذا هناك أمر تفتقر إليه تلك الأمة، ألا وهو الأحوال الذهنية؛ أي كيفية الشعور بكذا؛ فعلى الرغم من تحقق الدور الوظيفي في الأمة الصينية، فإن الأحوال الذهنية لم تتحقق؛ مما يعني أن الوظيفة شيء والأحوال الذهنية شيء آخر؛ وبذا يكون التفسير الوظيفي قاصراً.

وهناك اعتراض آخر وجه إلى الرؤية الوظيفية من زاوية أخرى. ينبه هذا الاعتراض على أنه إذا كانت الوظيفية تهدف إلى تفسير ملامح ذهنية مميزة ورئيسة (كالقصدية، والعقلانية، والوعي) بناء على علاقات وظيفية، فإن هذا سيجرها إلى الوقوع في معضلة (Van Gulick, 2009)؛ لأنها إذا قيدت نفسها (أي تفسيرها) بعلاقات لا تفترض مقدماً تلك الملامح الذهنية[30]، فإن هذا سيعتبر –على الأرجح– أن نموذجها الذي وضعته لتفسير تلك الملامح غير ملائم (Van Gulick, 2009)، أما إذا كانت تلك العلاقات تتضمن تلك الملامح ؛ أي تفترضها مسبقاً؛ فهذا يعرضها لمخاطر الوقوع في الدوران الفاسد (Van Gulick, 2009)؛ أي تفسير الشيء وتبريره بنفسه. فالمشكلة التي تواجهها الوظيفية تكمن في محاولتها تفسير الوعي أو القصدية عبر عناصر ربما تفتقر في ذاتها إلى تلك الملامح؛ إذ كيف لمواد تفتقر إلى الميزة الظاهراتية (الخبرة الذاتية المعاشة بموضوع ما) أن تفي بشروط العلاقات الوظيفية اللازمة لتحقق الوعي والقصدية؟ (Van Gulick, 2009).

ومن أبرز الاعتراضات التي وجهت إلى الرؤية الوظيفية والرّدية المادية أيضاً، الاعتراض الذي يرتكز على البعد الكيفي للتجربة الشعورية (Qualia)، ومن هذا الباب يمكن عدّه نسخة أخرى من الاعتراض السابق. يشير هذا الاعتراض إلى تمتع الوعي بجانب كيفي (Qualitative aspect) (Searle, 2004). فعلى سبيل المثال، تجربتي الشعورية أو الواعية التي تصاحب استماعي لموسيقا بيتهوفن، مختلفة كيفياً عن تجربتي الشعورية المصاحبة لشرب القهوة. فبحسب بعض المعترضين على المسلك الوظيفي، تهمل تلك المدرسة هذا الجانب من الوعي أو الإدراك؛ أي الجانب الكيفي الشعوري الذاتي الذي يميز الوعي؛ مما يعني فسادها (Searle, 2004).

(30) أي علاقات وظيفية في ذاتها خالية من الوعي والقصدية.

وهناك اعتراض آخر على الوظيفية يحمل اسم الطيف المتعاكس أو المقلوب (Spectrum Inversion)، وهو اعتراض مبني على تجربة ذهنية. مفاد هذا الاعتراض ما يأتي: لنفترض أنه أنا وأنت غير مصابين بعمى الألوان، وأننا نستطيع تمييزها بصورة متشابهة تماماً، فإذا ما طلب منا انتقاء الأقلام الحمراء الموجودة بين مجموعة الأقلام الخضراء، فإننا سننتقي الأقلام الحمراء، وإذا ما تغيرت إشارة المرور من اللون الأحمر إلى اللون الأخضر، فإننا سنتحرك معاً. لكن على الرغم من استجابتنا المتشابهة ظاهرياً للألوان، لنفترض –هكذا تمضي التجربة الذهنية– أن تجربتنا الداخلية هي في حقيقتها مختلفة تماماً بعضها عن بعض؛ فإذا كان من الممكن أن يكون لدي الخبرة الداخلية التي تُطلق عليها رؤية لون أخضر، فأنا أطلق عليها رؤية لون أحمر. وبالمثل، إذا كان من الممكن أن يكون لديك الخبرة التي أُطلِق عليها رؤية لون أخضر، فأنت تطلق عليها رؤية لون أحمر. المقصود هنا هو أن الأحمر والأخضر لدينا مقلوب: فما أطلق عليه رؤية لون أحمر أنت تختبره ذاتياً كرؤية لون أخضر، وما تطلق عليه رؤية لون أخضر أختبره كرؤية لون أحمر، فالسلوك الظاهري –إذن– متشابه عند تعاملنا مع تلك الألوان، أما خبرتنا الباطنة؛ فهي مختلفة كل الاختلاف، وهو اختلاف –لكونه ذاتياً– لا يمكن اكتشافه (Searle, 2004). ما يؤخذ على الوظيفية هو عدم تقديمها تفسيراً لتلك الخبرة الذاتية؛ على اعتبار أنها تعطي التفسير نفسه لخبرتي التي أصفها بقولي: «أرى شيئاً أخضر»، ولخبرتك التي تصفها بقولك: «أرى شيئاً أخضر»، في حين أن الخبرتين مختلفتان تماماً؛ مما يعني فساد الرؤية الوظيفية (Searle, 2004).

هذا من جانب، ومن جانب آخر بسط الفيلسوف توماس ناجل (Thomas Nagel) واحداً من أقوى الاعتراضات على التصور الوظيفي للمدرسة الوظيفية، يشبه في روحه بعض الاعتراضات السابقة. وهو الاعتراض الذي طرحه في مقالته المشهورة: (كيف يكون الإحساس أو الشعور كخفاش؟) (What Is It Like to Be a Bat?). بحسب ناجل، الوعي هو ما يجعل من العلاقة بين العقل والبدن مشكلة عسيرة الحل (Nagel, 1997)؛ وذلك لعجز التصورات الرّدية، ومنها الوظيفية –مع تحفظ البعض على وصفها بالرّدية–، عن تقديم نظريات ملائمة تستطيع من خلالها شرح أهم ظواهره الذهنية التي تميزه،

وهي ظواهر تتميز بطبيعتها الذاتية غير الموضوعية (Nagel, 1997). وبتعبير أدق وأكثر وضوحاً، ذاتية الظواهر الذهنية التي تميز الوعي هي –بحسب ناجل– السبب في عدم نجاح النظريات الرّدية في تقديم تفسير موضوعي لها. لكن يقول ناجل إنه لا يمكن فهم العلاقة بين العقل والبدن من دون فهم تلك الخصائص الذهنية الذاتية (الجانب الظاهراتي) التي يتميز بها الوعي (Nagel, 1997). وقد أعطى ناجل مثالاً يبرز هذا الجانب الظاهراتي للوعي لتوضيح السبب الرئيس وراء عجز النظريات الرّدية (ومنها الوظيفية) عن تقديم تفسير مناسب له. فبحسب ناجل، لا تختص ظاهرة الخبرة الذاتية الواعية بالنوع الإنساني فقط؛ إذ يتمتع بها العديد من الكائنات الحية الأخرى أيضاً؛ كالخفاش على سبيل المثال. وامتلاك الكائن الحي للخبرة الذاتية الواعية يعني –بحسب ناجل– «أن هناك شيئاً يشبه الإحساس بأن تكون هذا الكائن الحي» (“There is something it is like to be that organism” (Nagel, 1997, p. 519)، فإذا كان الخفاش يمتلك خبرة ذاتية واعية كخفاش؛ فهناك إذن شيء هو الشعور كخفاش؛ أي إن هناك تجربة ذاتية للخفاش خاصة به كخفاش. ويقول ناجل إنه مهما حاولنا –البشر المقيدين في هذا المقام بمنظور الشخص الثالث– فهم التكوين العصبي والسلوكي للخفاش عبر أكثر الأجهزة تقدماً، فإننا لن نستطيع أبداً معرفة كيف يكون الإحساس كخفاش (منظور الشخص الأول)؛ أي المرور بالخبرة الذاتية الواعية نفسها التي يمر بها الخفاش كخفاش (Nagel, 1997). فما يحاول ناجل التنبيه عليه في هذا المثال، هو أن هناك بعداً جوهرياً يميز الوعي، تعجز النظريات الرّدية –ومنها الوظيفية– عن معرفته؛ ومن ثم تفسيره تفسيراً مادياً موضوعياً، وهذا البعد هو البعد الظاهراتي للوعي، وهو بعد مبني على منظور الشخص الأول. من هنا، فشل المدرسة الوظيفية أو عجزها في تقديم تفسير ملائم لهذا الجانب –كونها تنطلق من منظور الشخص الثالث– يكشف عن قصور في الإحاطة المعرفية بالوعي؛ مما يعني في الأخير فشلها في حل مشكلة العلاقة بين الذهن والبدن، والظواهر الذهنية والمادية بشكل عام.

اعتراض آخر موجه هذه المرة إلى المدرسة الوظيفية الحسابية على وجه الخصوص ينبغي لنا ذكره، وهو الاعتراض الذي طرحه الفيلسوف جون سيرل

(John Searle) المعروف باسم: الغرفة الصينية (The Chinese Room). الحجة التي طرحها سيرل ضد الرؤية الوظيفية –والمدارس الرّدية المادية بصورة عامة– تنطلق أيضاً من الخبرة الذاتية للشخص الأول (first person experience)(Searle, 2004)[31]، وهو منطلق لجأ إليه لاختبار أي نظرية حول طبيعة الذهن (Searle, 2004). يقول سيرل: «إذا كان الذكاء الاصطناعي بصورته الحادة التي تذهب إلى أن الدماغ هو حاسب آلي، والذهن برنامج أو مجموعة من البرامج التي يمكن تطبيقها بنجاح بحيث تحاكي الذكاء البشري تماماً، فإن أي شخص يستطيع أن يكتسب أي قدرة إدراكية عبر تنفيذ برنامج للحاسب الآلي يحاكي تلك القدرة» (Searle, 2004, p. 90). لنر، يقول سيرل، إذا كان من الممكن القيام بذلك مع اللغة الصينية. في البداية، يعلن سيرل أنه لا يعرف الصينية إلى درجة عدم قدرته على التمييز بين الأحرف الصينية والأحرف اليابانية، لكن فلنتخيل، يقول سيرل: «إنني محبوس داخل غرفة برفقة مجموعة من الصناديق المملوءة بالأحرف الصينية، إضافة إلى كتاب قواعد يعمل عمل برنامج الحاسب الآلي يساعدني على الإجابة عن أسئلة موجهة لي بالصينية. لذا، عندما تعرض علي رموز صينية لا أعرفها هي أسئلة، ألجأ إلى كتاب القواعد (البرنامج)؛ طلباً للتوجيه والإرشاد. بعد ذلك أقوم بترتيب تلك الرموز والتلاعب بها وفقاً للقواعد المبينة في البرنامج (كتاب القواعد)، ثم أرسلها لمن سيفسرها على أنها إجابات عن تلك الأسئلة» (Searle, 2004, p. 90). لنفترض، يقول سيرل: «إنني اجتزت اختبار تورنغ لفهم اللغة الصينية بنجاح[32]، على الرغم من كوني لا أعرف كلمة واحدة من تلك اللغة، وبما أنني لم أتمكن من فهم اللغة الصينية عبر تنفيذي البرنامج المناسب، فلن يستطيع أن يفهمها أيضاً أي حاسب آلي آخر

(31) في الحقيقة، هي موجهة في الأساس ضد الذكاء الاصطناعي (AI) بالمعنى الصارم، لكنها تسري أيضاً على المدرسة الوظيفية وغيرها من المدارس الرّدية المادية (Searle, 2004).

(32) اختبار تورنغ (نسبة إلى مبتكره آلان تورنغ) اختبار الغرض منه معرفة متى تتصرف آلة معينة بذكاء ومتى لا تتصرف بذلك، وذلك عبر طرح السؤال الآتي: هل يمكن لتلك الآلة أن تتصرف بشكل يجعل الخبراء عاجزين عن تمييزها عن البشر؟ إذا ما استجابت تلك الآلة –واستجاب مواطن صيني مثلاً– لمجموعة من الأسئلة وضعت باللغة الصينية، بطريقة تضع المواطنين الصينيين في حيرة التمييز بينهما، نستطيع الحكم عندئذ بأن الآلة تفهم الصينية (Searle, 2004).

عند تنفيـذه ذلك البرنـامـج نفسـه؛ لأن الحواسيب الآليـة لا تملك شيئـاً لا أملكـه» (Searle, 2004, p. 90).

سنرى الفرق، يشير سيرل، بين الحساب (computation) وبين الفهم الحقيقي إذا استطعنا أن نتخيل كيف يكون هو الشعور بالنسبة إلي عندما أجيب عن تلك الأسئلة، وأنا في الغرفة، بلغتي الإنجليزية. فمن الخارج، إجاباتي باللغة الصينية والإنجليزية هي جيدة بصورة متساوية؛ إذ كلاهما اجتاز اختبار تورنغ بنجاح، لكن من الداخل (التجربة الذاتية)، هما مختلفان تماماً. ما جوهر الاختلاف بينهما؟ يكمن الاختلاف في أنني أفهم المفردات المكتوبة باللغة الإنجليزية، بينما لا أفهم تلك المكتوبة باللغة الصينية (Searle, 2004)، فعند تعاملي مع الصينية من خلال القواعد الموجودة في الكتاب (البرنامج)، أنا مجرد حاسب آلي لا أكثر. وبتعبير آخر، يعمل الحاسب الآلي عبر التلاعب بالرموز وفقاً لقواعد نحوية بنيوية بحتة، بينما يقوم العقل البشري بربط معانٍ بتلك الرموز (Searle, 2004). وهذا هو الفرق الذي يجعل –بحسب سيرل– من عملية بناء ذكاء اصطناعي مطابق للذهن البشري أمراً متعذراً، كما أنه واحد من أهم أسباب قصور التفسير الوظيفي لطبيعة للظواهر الذهنية، وبالخصوص ذلك البعد المتعلق بالجانب الظاهراتي.

نـأتـي إلـى آخـر اعتراض قائم علـى تجربـة ذهنيـة أيضاً فـي بحثنـا هـذا علـى الـرؤيـة الـوظيفيـة، المعـروف بمعقـوليـة الأحيـاء الأمـوات (الـزومبـي) (The Conceivability of Zombies)[33]. يمضي هذا الاعتراض على النحو الآتي: من المعقول منطقياً وجود كائن يشبهني –الإنسان– تماماً، من حيث السلوك والبنية والتكوين المادي، لكن في الوقت نفسه يفتقر إلى الحياة الذهنية، والوعي، والقصدية (Searle, 2004)[34]. لكن إذا كان من الممكن منطقياً تخيل وجود نظام معين يمتلك السلوك المناسب، والوظائف الآلية المناسبة، والبنية المادية المناسبة، بصورة مطابقة حرفياً للإنسان، لكنه مع ذلك يفتقر إلى الحياة الذهنية (كالوعي مثلاً)، فهذا

(33) وهو اعتراض موجه أيضاً ضد المسلك الرّدي المادي.

(34) تفصيل الحجة في (Chalmers, 1989).

يعني أن الحالة المادية شيء والحالة الذهنية شيء آخر؛ مما يعني بطلان المسلك الوظيفي، وجميع النظريات المادية أيضاً (Searle, 2004).

تجدر الإشارة هنا إلى أنه من وجهة نظر فان غوليك (Van Gulick, 2009)، جميع الاعتراضات السابقة التي أثيرت ضد الوظيفية غير حاسمة؛ إذ استطاعت تلك المدرسة تقديم ردود مناسبة على كل واحد منها[35]. لأنتقل الآن إلى تصور أرسطو للعلاقة بين النفس والبدن.

4 - علاقة النفس بالبدن وفقاً لأرسطو

وظائف النفس وصلتها بالبدن طبقاً لأرسطو: سأبدأ هذا القسم بطرح فرضية مستوحاة من تصور أرسطو لعلاقة أجزاء النفس بالبدن.

فرضية: هناك وحدة تناسب بين صورة الإدراك والشعور، والبنية العضوية المادية لمحل تحققهما؛ بحيث تمنع تلك الوحدة قيام تلك الصورة في بنية مادية مغايرة إلا مع تغاير طبيعة الإدراك والشعور نفسها وكيفيتهما. فلا انضمام هنا لشيء (النفس) بشيء (البدن)، ولا زيادة كيفية واقعية عليه، ولا تغاير فعلي بل اتحاد، والتفكيك بينهما اعتباري وليس حقيقياً ما ورائياً.

إثبات الفرضية:

سأحاول إثبات الفرضية عبر تحليل تعريف أرسطو العام للنفس[36]. لكن قبل ذلك، أجد من الضروري التطرق إلى المنهج الذي سلكه في بحثه عن طبيعة النفس، ومحل هذا المبحث هو: أهو الطبيعيات؟ أم ما وراء الطبيعة؟ أم غير ذلك؟

بحسب أرسطو، تحصيل ما هو واضح ومنطقي بحسب الطبيعة يأتي عبر المرور (دراسة) بما هو مضطرب وغير واضح، لكنه مع ذلك –باعتبار الحس– أقرب إلينا (Aristotle, 1941). وبتفصيل أكثر، المنهج الذي اتبعه أرسطو في مبحث النفس

(35) تطلب الردود في محلها المناسب.

(36) عام بمعنى أنه يشمل جميع الكائنات الحية باعتبارها حية؛ ومن ثم ذوات أنفس. ومن هنا، تعريف النفس الذي بسطه أرسطو لا يختص بالنفس الإنسانية فقط.

خليط من المنهج الجدلي والاستقرائي، الذي تكون فيه الخبرة الحسية والمشهورات نقطة البدء في عملية تشكيل المقدمات بغية العثور على المبادئ الأولى؛ أي العلل والأسباب القصوى للمعرفة، التي من خلالها يمكن تكوين تعريف علمي كاشف عن ماهية النفس وطبيعتها (Aristotle, 1993). هذا بالنسبة إلى المنهج، أما بالنسبة إلى محل مبحث النفس عند أرسطو، فإنه بما أن النفس عنده وعند الإغريق بصورة عامة مبدأ حياة الحيوان[37]، أو مبدأ الحركة الذاتية بكل صورها للكائن الحي، فإن محل دراستها المناسب هو علم الطبيعة (Aristotle, 1941). إن إدراج مبحث النفس ضمن مباحث الطبيعة، والاستناد إلى المنهج الجدلي والاستقرائي، لإيجاد تعريف علمي كاشف عن ماهية النفس وطبيعتها، له –في نظري– دلالات مهمة، إحداها أن التأمل الفلسفي في النفس (الأحوال والظواهر الذهنية في سياق الورقة العام) لا ينبغي أن يكون بمعزل عن الخبرة والتجربة الحسية (العلوم الطبيعية)، بل ينبغي أن يراعيها ويستفيد منها، لوجود ارتباط جوهري بين النفس والبدن (الجانب المادي الذي يهتم به علم الطبيعة)، كما سنرى بعد قليل.

لأقوم الآن بتحليل مكونات التعريف الذي اقترحه أرسطو للنفس.

يعرف أرسطو النفس على النحو الآتي: «النفس كمال (أو تحقق (Entelecheia (Ἐντελέχεια [38] أول لجسم طبيعي آلي منظم (organized) يمتلك حياة بالقوة» (Aristotle, 1941).

(37) يعني أرسطو بالحياة: التغذية الذاتية والنمو (Aristotle, 1941).

(38) آثرت استخدام مفردة «التحقق» في هذا الجزء من البحث؛ لأنها –من وجهة نظري– توضح دور وعلاقة النفس (الصورة) بالبدن بصورة أوضح وأدق من مفردة «الكمال» (أو «الاستكمال» بحسب استخدام ابن رشد وغيره من المتقدمين)، من جهة أنها تعبر أكثر عن طبيعة التغير ومراحله. ومن الجدير بالذكر أن تلك المفردة من ابتكارات أرسطو وتشير إلى الوجود الحقيقي لغاية معينة...، وفي تعريفه للنفس فهي (أي مفردة «التحقق») تعني «أن النفس هي الوجود الحقيقي للقدرات على أداء وظائف الحياة» (Preus, 2015).

يتضمن هذا التعريف مفاتيح تصور أرسطو لطبيعة النفس بصورة عامة وعلاقتها الوظيفية بالبدن، نذكرها بحسب الترتيب الآتي: أولاً، التحقق والاستعداد، ويستعمل أحياناً بمعنى القوة، والإمكان، والقابلية. ثانياً، كمال أول. ثالثاً، جسم طبيعي آلي يمتلك حياة بالقوة.

التحقق (Actualization) والاستعداد (Potentiality): التحقق[39] –بحسب أرسطو– هو وجود الشيء، لكن لا على سبيل وجوده بالقوة (Aristotle, 1941). فعلى سبيل المثال، قطعة الرخام –قبل أخذها صورة التمثال– هي تمثال هرمس بالقوة، لكنها ليست بالفعل. وعلم النحو حاضر في ذهن النحوي بالقوة عندما لا يستخدم هذا العلم، لكن تتحقق صورة هرمس في قطعة الرخام، وعند استخدام النحوي معرفته النحوية، فإن تلك القطعة هي تمثال هرمس بالفعل، وتلك المعرفة موجودة بالفعل، فالقوة تشير إلى حالة الاستعداد والإمكان، بينما يشير التحقق إلى حالة الفعلية.

وينبغي التنبيه في هذا المقام على أن أرسطو يعتبر المادة (Matter) –والبدن إحدى صورها– موجودة دائماً بالقوة، أما الصورة (Form)، والنفس إحدى صورها؛ فهي ما يوجد بالفعل (Aristotle, 1941)؛ إذ هي ما يجعل المادة متشخصة ومتعينة، أي شيئاً مشاراً إليه، كهذا الإنسان، وتلك الطاولة، وتلك الشجرة، إلخ. وعليه؛ الصورة (النفس) شيء، والمادة (البدن) شيء آخر؛ إذ البدن مادي الطبيعة، ومن هذا الباب له مقام القوة والاستعداد (Aristotle, 1941)؛ أي القابلية والاستعداد لاستقبال الصورة (النفس في مقامنا هذا) (Aristotle, 1993)، أما النفس –كما سأفصل بعد قليل–؛ فتحقُّق، وتحققها نابع من كونها مبدأ للحياة، كما أشرت. من هنا، الأشياء (الجواهر) المحسوسة المشار إليها مركبة من صورة (النفس في مقامنا هذا) ومادة (البدن)؛ لذا من الممكن القول بوجود نمط من الثنائية هنا، لكن ليس بالمعنى الديكارتي؛ لأن مفارقة الصورة للمادة في هذا المقام هي مفارقة ذهنية تظهر في عملية التعريف، الذي يحاول اقتناص الصفات الذاتية للجوهر المركب (أي إحراز الماهية).

(39) ينبغي لفت انتباه القارئ إلى أن أرسطو في هذا المقام لم يطرح تعريفاً تقنياً للتحقق والاستعداد، بل اكتفى ببيان معناهما عن طريق مجموعة من الأمثلة.

النفس بوصفها كمالاً (أو تحققاً) أولاً وثانياً: فيما يتعلق بوجود النفس كتحقق في مقابل الوجود الاستعدادي للبدن، يشير أرسطو إلى مرتبتين أو معنيين من التحقق، كل منهما مرتبط بالآخر. المرتبة الأولى تشبه حالة امتلاك العلم دون استخدامه، والثانية تشبه حالة استخدام هذا العلم (Aristotle, 1941)؛ فالشخص النائم يمتلك نفساً؛ لأنه حي، وكذلك اليقظان بطبيعة الحال، لكن بما أن النفس في حالة النوم لا تستخدم كامل قواها، وليست في تمام نشاطها؛ أي معظم قواها ليست في حالة الفعلية، فهي –وإن كانت متحققة– في مقام الاستعداد (أو القابلية) (ἕξις--capacity)، مقارنة بمقامها حينما تستخدم كامل قواها أثناء اليقظة. وهنا –أي في حالة اليقظة– تكون النفس في مقام الفعلية (ἐνέργεια--activity) من الدرجة الثانية. ومن هنا جاء تعريف أرسطو للنفس على أنها كمال أو تحقق أول؛ لأن وجودها في المرتبة الأولى كاف للدلالة على وجود حياة. وبما أن النفس مصدر الحياة أو علتها، والإدراك الحسي، والتفكير، فمن هذا الاعتبار، هي الأولى بالاتصاف بكونها ماهية الكائن الحي المركب من الصورة والمادة (Aristotle, 1941). بناء عليه؛ النفس جوهر، وهي جوهر بمعنى الصورة (Aristotle, 1941)، لا بمعنى المادة ولا المركب من الصورة والمادة. وباعتبار آخر متصل بالسابق، النفس هي علة الجسم الحي. هي علة بمعنى: 1 – مبدأ ومصدر الحركة، 2 – الغاية، 3 – ماهية تمام الجسم الحي (Aristotle, 1941).

جسم طبيعي آلي منظم يمتلك حياة بالقوة: هذا الجزء من التعريف يتضمن تصور أرسطو للعلاقة بين النفس (الصورة أو الماهية في مقام التحقق والاستكمال) والبدن (المادة ذات مقام الاستعداد)؛ أهي علاقة وحدة، أم انفكاك، أم تحقق متعدد، كما ينسب إليه بعض أتباع المدرسة الوظيفية؟ ولتكوين تصور أولي عن رؤية أرسطو لتلك العلاقة، من المناسب النظر في عبارته الواردة في الفصل الثاني من الكتاب الأول من (في النفس). يقول أرسطو مجيباً عن السؤال: هل انفعالات النفس «كلها مشتركة للبدن والنفس؟ أعني أنه أمع وجودها للنفس من ضرورة وجودها للبدن» (ابن رشد، 1994، ص. 6)، أم أن هناك منها ما هو خاص بالنفس فقط؟ إن تحديد ذلك أمر ضروري –يعلق أرسطو–، لكنه صعب (Aristotle, 1941)، وإذا أخذنا –يقول أرسطو– معظم الانفعالات؛ مثل: الغضب، والشجاعة، والشهية، والأحاسيس بشكل

عام، يبدو أنه –باستثناء التفكير[40]– لا توجد حالة تنفعل فيها النفس من شيء، أو تفعل في شيء بمعزل عن البدن (Aristotle, 1941). لكن إذا كان هناك أي طريقة للفعل أو الانفعال خاصة بالنفس فقط، فستكون النفس حينها قادرة على الوجود بصورة مفارقة للبدن (Aristotle, 1941)، أما إذا لم توجد تلك الطريقة؛ فمن المستحيل –إذن– أن توجد النفس بصورة مفارقة له (Aristotle, 1941). وبناء على ما تقدم؛ يبدو أن جميع انفعالات النفس تقتضي بدناً ما، فعلى سبيل المثال: العاطفة، والرقة، والخوف، والشفقة، والجسارة، والبهجة، والحب، والكراهية؛ جميعها يحتوي على انفعال البدن، وإن هناك اتفاقاً على تأثيره (Aristotle, 1941). يقول أرسطو: «ويشبه أن تكون انفعالات النفس، أعني الجزء المنفعل من النفس، ليس يمكن فيها أن تكون خلواً من البدن» (ابن رشد، 1994، ص. 7). وفي موضع آخر يؤكد أرسطو «أن انفعالات النفس غير مفارقة للمادة التحتية (material substratum) لحياة الحيوان» (Aristotle, 1941, p. 538).

الانطباع الأولي –إذن– لتصور أرسطو للعلاقة بين النفس والبدن، هو أن العلاقة بينهما –باستثناء ملكة التفكير ربما– علاقة اتحاد، أو وحدة –بتعبير أرسطي أدق– وليس انفكاكاً أو مفارقة بالمعنى الديكارتي. فلنتأمل أكثر في نمط هذه الوحدة وطبيعتها بحسب المقطع الأخير من التعريف.

يلفت أرسطو الانتباه إلى نقطة غاية في الأهمية، تتعلق بطبيعة البدن كاستعداد يمتلك حياة (أي نفساً)؛ إذ صحيح أن البدن مادة، لكنه ليس أي مادة، بل مادة قابلة لتحقق الحياة (النفس) فيها، أي مادة منظمة ومجهزة بصورة تسمح بأن تكون آلة (وسيلة) (Organ) لتحقق النفس فيها؛ وممارسة قواها من خلالها. فالبدن الذي تكون فيه النفس تحققاً أولاً، أو استكمالاً أولاً –بتعبير ابن رشد (1994)– هو بدن منظم بصورة تخدم غرض أو غاية معينة؛ أي إنه مركب من أجزاء تزود النفس بالأدوات (Polansky, 2007). فالنفس تحقق لما هو موجود بالقوة في البدن؛ أي هي تُحقق ما هو

(40) لكن يعقب أرسطو بعد ذلك مباشرة بالقول: إنه إذا كان التفكير هو صورة من صور التخيل، أو مستحيلاً من دون التخيل، فهو يحتاج إلى البدن كشرط لوجوده (أي وجود التفكير) (Aristotle, 1941).

موجود بالقوة في البدن، كما أن صورة الشجرة مثلاً تحقق ما هو موجود بالقوة في البذرة. فحال العلاقة بين النفس والبدن هنا كحال علاقة البصر بالعين؛ فالعين بلا بصر هي عين بالاسم فقط، أي بالاشتراك اللفظي (Aristotle, 1941)، ذلك أن الإبصار هو ماهية العين أو جوهرها (Aristotle, 1941). وهكذا الحال تقريباً مع البدن؛ فالبدن بلا نفس (بلا حياة) هو بدن بالاسم فقط (Aristotle, 1941). وبما أن النفس هي تحقق لنوع معين من الجسم، فإن الرأي الأصوب –بحسب أرسطو– هو أن النفس لا تستطيع أن توجد من دون جسم ما (Aristotle, 1941)، بل إن تحقق بعض أجزاء النفس هو تحقق لأجزاء البدن فقط لا غير (Aristotle, 1941). لكن ينبغي الالتفات إلى أن أرسطو لا يعد النفس جسماً، والأصح أن يقال: «إنها موجودة في ومتصلة بجسم معين» (Aristotle, 1941, p. 559). ومن المهم جداً التذكير مجدداً بأن المغايرة بين النفس والبدن الواردة هنا ليست بمغايرة ومفارقة واقعية؛ بمعنى استقلالية النفس عن البدن، ومن ثم قدرتها على مفارقته خارجياً –كما يذهب أفلاطون وديكارت مثلاً–؛ لأن أرسطو نفى إمكانية ذلك للأسباب التي أشرنا إليها قبل قليل. الوصف الأنسب لتلك المغايرة –بناء على ما سبق– أنها مغايرة ما ورائية بين نحوين من الوجود، هما: وجود بالقوة (المادة)، وآخر بالفعل (النفس/الصورة)؛ أي أن واحداً منهما فاعل (النفس)، والآخر قابل (البدن). وفي الحقيقة، تلك المغايرة التي تظهر في التعريف الكاشف عن ماهية الجوهر المركب تؤكد –من وجهة نظري– الوحدة العينية التامة بينهما؛ لأن النفس هنا هي تحقق لنمط معين من المادة القريبة (approximate matter)؛ أي مادة مجهزة بأعضاء على استعداد للقيام بوظائف النفس، ووظائف هي تحقق لتلك الأعضاء، كما ذكرت قبل قليل. فليست النفس تحققاً لأي نوع من البدن، بل لهذا النوع من البدن على وجه التحديد. يقول أرسطو: «هناك معان عدة للوحدة (بعدد معاني الوجود)، لكن المعنى الأولي الذي له الأولوية والأسبقية على جميع المعاني الأخرى، هو التحقق الذي يظهر من حيث علاقته بما هو تحقق له (أي من حيث علاقته بالمادة التي تكون دائماً في حالة الاستعداد حتى أثناء اتحادها بالنفس، أي عندما يكون البدن في حالة حياة)» (Aristotle, 1941, p. 555). ويقول أيضاً في عبارة أخرى أكثر وضوحاً في هذا الشأن: «الرأي الأصوب هو أن النفس لا توجد بلا بدن، على

الرغم من أنه لا يمكن لها أن تكون بدناً ما، هي ليست بدناً ما، لكنها ذات صلة به، أو نسبة إليه. هذا هو السبب لماذا هي في البدن، وبدن من نوع محدد. من هنا، كان من الخطأ، وهو خطأ ارتكبه المتقدمون، منح البدن نفساً من دون تخصيص نوع وضرب هذا البدن. والتأمل يؤكد الحقيقة المشاهدة؛ إن تحقق أي شيء لا ينجز إلا إذا كان تحققاً لما كان بالقوة هذا الشيء، أعني في مادة ملائمة له» (Aristotle, 1941, p. 559). من هنا، «النفس، بوصفها صورة وتحقق للبدن، لا توجد من دون بدن، وهي ليست أي ضرب من ضروب البدن» (Polansky, 2007, p. 185)، إذ هي تعمل كمبدأ لبدن مناسب لها، وليس أي بدن كان، هذا ما يثبته العقل والمشاهدة بحسب أرسطو (Polansky, 2007). أود أن ألفت الانتباه هنا إلى عدم وجود أرضية فلسفية كافية –من وجهة نظري– لنسبة فكرة التحقق المتعدد بمفهومها الوظيفي لأرسطو –كما يدعي كل من مارثا نسباوم وهيلاري بتنام (1992)، وغيرهما من الفلاسفة المتأخرين– حتى لو عرف أجزاء البدن تعريفاً وظيفياً، لاتحادهما (النفس والبدن) في عملية تحقق ما هو موجود بالقوة. وبتعبير آخر، هناك نوع من أنواع الاعتماد الوظيفي والمادي المتبادل –إن صح التعبير– بين النفس والبدن؛ بحيث لا يمكن –إذا ما أخذنا فكرة القوة والفعل بعين الاعتبار– تصور انفكاك أحدهما عن الآخر انفكاكاً وجودياً؛ فالنفس تحقق لبدن مجهز بأعضاء، وتلك الأعضاء هي ما يجعل من تحقق النفس وممارسة قواها أمراً ممكناً. ومن ناحية أخرى، إذا ما اعتبرنا الأرضية المادية لانفعالات النفس التي أشرنا إليها قبل قليل؛ كالغضب مثلاً، فإننا نستطيع القول إن تباين الأرضية المادية بين الأشياء المتحققة التي تنتمي –بحسب عرف المدرسة الوظيفية– إلى النوع نفسه، كتحقق الألم على سبيل المثال، سيؤدي إلى تباين كيفي نوعي بينها. بل حتى التكوين المادي لتلك الأدوات ربما يكون من جملة المحددات الكيفية لتلك الانفعالات، وإذا كان الأمر كذلك –وهو على الأرجح كذلك كما سنحاول أن نبينه في الفصل القادم–، فإن التحقق المتعدد هنا سطحي ظاهري، والاشتراك بين ما صدقات الأشياء المتحققة المتعددة هو اشتراك ربما أقرب ما يكون إلى الاشتراك اللفظي منه إلى المعنوي، وذلك للاختلاف الكيفي بينها، والكيف ركن أصيل من الحالة الذهنية.

ومن جهة أخرى، بناء على مركزية البعدين: المادي والنفسي الصوري، في عملية البحث والفهم والتفسير، يشير أرسطو (Aristotle, 1941) إلى أن التعريف المناسب لانفعالات النفس –الغضب على سبيل المثال– ينبغي أن يأخذ في عين الاعتبار بُعديها: المادي والصوري. فبحسب أرسطو، التعريف المادي لانفعالات النفس يقع على عاتق عالم الطبيعة، أو فيلسوف الطبيعة[41]. فعند محاولة تعريفه للغضب مثلاً، سيعرفه على أنه نحو من أنحاء الحركة لجسم معين، أو لجزء معين من أجزاء البدن، تم بفعل هذا أو ذاك السبب، لهذه أو لتلك الغاية، فوران الدم حول القلب مثلاً (Aristotle, 1941). بينما يقع التعريف الصوري على عاتق الجدلي (Aristotle, 1941). ففي مثال الغضب، سيعرفه الجدلي مثلاً على أنه الرغبة في مبادلة الألم بألم. فتركيز الجدلي هنا –بخلاف عالم الطبيعة– على صورة الغضب وليس على أحواله المادية (Aristotle, 1941)، أو شروطه وأرضيته، لكن يبقى أن صورة الغضب وماهيته، يجب أن تكون مجسدة في مادة كتلك التي يصفها عالم الطبيعة (Aristotle, 1941)، وقس على ذلك سائر الانفعالات الأخرى. علينا الإشارة في هذا المقام إلى أن المقدمات التي يستمد منها الجدلي نتائجه –بحسب كتاب الجدل لأرسطو– عبارة عن مشهورات (أو الآراء المقبولة أو المحمودة) مقبولة، من قبل جميع الناس، أو معظمهم، أو من المبرزين منهم (Aristotle, 1941).

نتيجة:

هل تم إثبات الفرضية التي طرحتها في الأعلى؟ أعتقد أن الإجابة الأقرب هي الإيجاب، وذلك للأسباب الآتية:

1- تصريح أرسطو نفسه بأن النفس والبدن هما شيء واحد على أرض التحقق؛ إذ النفس هي تحقق لما هو موجود بالقوة في المادة، والمادة تمتلك استعداداً ذاتياً لاستقبال الصورة (النفس).

2- من هنا، باعتبار القوة والتحقق، النفس والبدن هما شيء واحد، لا شيئان منفصلان مستقل أحدهما عن الآخر، ومن ثم لا يقبلان الانفكاك وجودياً أحدهما عن الآخر.

(41) ولهذا السبب أدرج أرسطو مبحث النفس ضمن مباحث الطبيعة.

3- إذا أخذنا بعين الاعتبار البعد المادي لانفعالات النفس، الذي نبه عليه أرسطو في العبارات التي استشهدنا بها، وعدم قدرة النفس على استغنائها استغناء وجودياً عن هذا البعد، فهذا يعني -في ما يعنيه- جوهرية الأرضية المادية في تنميط كيفية الانفعالات النفسية، وتعيينها، وتمييزها، وتفردها النوعي. فتلك الانفعالات ليست مصداقاً لنوع، بل -إن جاز لي التعبير- هي أنواع وماصدقات لأنفسها.

5 - مقاربة ردّية للظواهر الذهنية

مقاربة ردّية مادية للظواهر الذهنية مع مناقشة أهم الاعتراضات التي وجهت إليها: ينقسم هذا الجزء إلى قسمين رئيسين: الأول، أحاول فيه الرد -عبر جملة من الملاحظات- على أهم الاعتراضات التي وجهت للمسلك الرّدي المادي، التي عرضنا بعضاً منها في القسمين الأول والثاني من هذه الورقة. أما الثاني؛ فسأحاول فيه ترجيح الموقف الرّدي المادي على الموقف اللا ردي ترجيحاً فلسفياً وعلمياً تجريبياً.

أولاً - مناقشة أهم الإشكالات والاعتراضات التي وجهت إلى المسلك الرّدّي المادي:

بداية، أود التنبيه على أنني لن أناقش جميع الحجج التي وجهت إلى تصور المدرسة الوظيفية الخاص بها لطبيعة الظواهر الذهنية، بل تلك التي غرضها -بصورة عامة- زعزعة أركان الرّدية المادية فقط.

بصورة عامة، من الممكن قسمة الاعتراضات التي أثيرت على الرّدية المادية إلى قسمين: واحدة رئيسة، وأخرى متفرعة عنها تشاركها افتراضاتها الأساسية، إذ جميع الاعتراضات الرئيسة، وتلك التي تفرعت عنها، تشترك على نحو مباشر وغير مباشر في الادعاء بوجود فجوة معرفية (epistemic gap) بين النطاق المادي والنطاق الظاهراتي (Chalmers, 2002). وبما أن القسمين ينطلقان تقريباً من الأرضية المنطقية نفسها، فإن نقاشنا سينصب على القسم الأول دون الثاني، حتى إذا ما أشكلنا على أركانه أدى ذلك إلى بطلان أو اختلال ما تفرع عنه وما بني عليه.

الملاحظة الأولى التي أود إيرادها على بعض المسالك الفلسفية التي عدت الأحوال الذهنية أمراً لا يمكن رده إلى بنى مادية، هي ملاحظة عامة.

إن القول بوجود تغاير وتمايز وجودي ما ورائي بين الأحوال الذهنية والحالات المادية قد يعود بنا مجدداً إلى مأزق الثنائية الديكارتية، الذي يتمثل في عدم قدرتها على تفسير العلاقة السببية بين جوهرين مختلفين: واحد مادي مركب وممتد، وآخر لا مادي بسيط وغير ممتد، على تقدير وجوده؛ فإذا كانت الأحوال الذهنية أمراً لا يمكن –كما تذهب تلك المسالك– رده مادياً، فهذا يعني أنها ذات طبيعة غير مادية، وإذا كانت ذات طبيعة غير مادية، كيف يمكن تفسير علاقتها السببية مع الحالات المادية إذن؟! على تقدير قبول معظم المنتمين لتلك المسالك بوجود علاقة سببية بين الأحوال الذهنية والحالات المادية، وأغلبهم –بحسب علمي– يقبل. ولن يغني القول بحياديتها الوجودية، أو التوقف والقول بغموضها، لافتقار كلتا الفكرتين إلى القوة التفسيرية. كما أنهما يزيدان المسألة تعقيداً من الناحية المعرفية؛ لأنهما يحيلان إلى مجهول.

الملاحظة الثانية، انطلق بعض فلاسفة الذهن –بصورة مباشرة وغير مباشرة– من الجهل بطبيعة الجهاز العصبي وعلاقته بظاهرة (نشأة) الوعي والأحوال الذهنية، لإثبات وجود تغاير نوعي بين الظواهر الذهنية والنظم والبنى المادية التي تحققت فيها. المشكلة أن الجهل هنا هو جهل ذاتي ناجم عن عدم قدرة العلماء –على الأقل في وقتنا الحاضر– على الوصول إلى نتيجة نهائية تحسم الخلاف حول طبيعة الوعي والظواهر الذهنية، وعلاقتها بالجهاز العصبي وغيره من عوامل وعناصر كيميائية حيوية. وهذا أمر طبيعي؛ نظراً للطبيعة المتدرجة للمعرفة العلمية التي تخضع لظروف وعوامل وشروط مختلفة، على رأسها مستوى التقدم التقني، ودقة الموضوع نفسه وغموضه. وبتعبير آخر، جهلنا بطبيعة الوعي والظواهر الذهنية الآن ليس هو كجهل عالم الطبيعة (الفيزياء) ببعض الأمور التي تخص عالم ما دون الذرة؛ حيث الجهل هنا (في حالة عالم الفيزياء) موضوعي راجع إلى غموض الطبيعة نفسها وليس إلينا. أما في ما يخص الظواهر الذهنية وعلاقتها بالجانب

العصبي والكيميائي الحيوي للإنسان؛ فالجهل هنا –من وجهة نظري– ذاتي بحت. وفي الحقيقة، كثرة النظريات والمذاهب الفلسفية والعلمية المطروحة لتفسير الوعي، وعلاقة الظواهر الذهنية بالجوانب العضوية المادية، وتضاربها في مواضع جوهرية، يشير إلى وجود جهل معرفي بالأسس المادية للظواهر الذهنية، بما في ذلك الوعي بطبيعة الحال.

الملاحظة الثالثة هي أكثر تخصيصاً وتحديداً من السابقة، وتتعلق بنمط الملحظ أو المنظور الذي بني عليه التغاير بين الظواهر الذهنية والنظم العضوية المادية. تلك الملاحظة موجهة –في المقام الأول– لفكرة البعد الكيفي للتجربة الشعورية الذاتية (Qualia)، التي قامت عليها –من وجهة نظري– حجج توماس ناجل (كيف هو الشعور كخفاش؟)، وبلوك (الأمة الصينية)، وكربك (الاتحاد)، وتشالمرز (حجة المعقولية) وربما غيرها أيضاً.

استند البعض إلى وجود مغايرة وتمايز وجودي (أنطولوجي) بين الظواهر الذهنية والنظم المادية على امتناع رد البعد الكيفي الظاهراتي إلى عوامل وعناصر مادية بحتة، على اعتبار أن الخصائص الكيفية الملازمة للشعور الذاتي شيء، والعمليات المادية العصبية التي يلاحظها عالم الأعصاب في الدماغ عبر مجهر الدماغ (Cerebrascope) على سبيل المثال، شيء آخر.

من وجهة نظري، هناك خلل جوهري في الأرضية التي استند إليها هذا النمط من الاستدلال، يتصل بالمنظور الذي استند إليه. فلو تأملنا المنظور الذي تم فيه تمييز الظاهرة الذهنية وتفريدها، ومن ثم اعتبارها شيئاً متميزاً ما ورائياً عن موطن تحققها ووجودها (البنية المادية التحتية)، وعدها نمطاً أو نوعاً (Type) خاصاً، لوجدنا أنه منظور جاء من منظور الشخص الأول. أما المنظور الذي اختفى فيه هذا التفرد وهذا التميز، الذي وفر للبعض سبباً آخر لتأكيد تميز الظاهرة الذهنية وتغايرها، لكن بصورة غير مباشرة؛ فهو المنظور الذي استند إلى منظور الشخص الثالث (المنظور المستخدم عادة في العلوم الطبيعية). من هنا، أساس هذا التمايز والتغاير الوجودي –من وجهة نظري– بين الظواهر الذهنية والبنى والنظم المادية

التحتية (أو الظواهر الحيوية العصبية (neurobiological phenomena) –بحسب تعبير باتريشيا تشيرتشلاند (Patricia Churchland) (1997)– أتى من النظر إلى الظواهر الذهنية من منظورين أو زاويتين مختلفتين تماماً، وليس من المنظور نفسه، كما هو الحال مع بعض الظواهر الطبيعية؛ كالضوء مثلاً، الذي قامت عملية الرد فيه إلى عناصره ومكوناته الفيزيائية على منظور الشخص الثالث فقط. من هنا، تطبيق عملية الرد التي استخدمت في تفسير الظواهر الطبيعية على الظواهر الذهنية هو –في رأيي– غير موفق من حيث المبدأ. أكرر، هو غير موفق؛ لأنه افترض أن حال الظواهر الذهنية من حال الضوء، على الرغم من كونها ظواهر ذاتية غير موضوعية لا يمكن رصدها –بما هي ذاتية– من منظور الشخص الثالث، ومن ثم ردها رداً وجودياً موضوعياً وقانونياً إلى عوامل وعناصر حيوية عصبية. وبعبارة أخرى، اعتبر بعض العلماء أن الظواهر الذهنية شيء يمكن رده رداً مادياً؛ مما أعطى الانطباع بوجود صورة من صور الثنائية (نمطان من الوجود) في هذا الظرف. لكن بما أن الظواهر الذهنية –بما هي ظواهر ذهنية– في جوهرها ذاتية، فهي غير موجودة وجوداً موضوعياً، كما أشرت. ولهذا السبب، استدل البعض على أن الظواهر الذهنية لا يمكن ردها رداً موضوعياً (أي من منظور الشخص الثالث) إلى عناصر مادية؛ ومن ثم فإن لها نمطاً من الوجود الخاص بها مغايراً للبنى العصبية الحيوية التي وجدت فيها. لكن الأمر ليس كذلك –من وجهة نظري–؛ لأنه لا وجود موضوعياً للظواهر الذهنية؛ بحيث يمكن رده رداً قانونياً (Law-like) موضوعياً إلى عناصر وعوامل أساسية. فكل ما يمكن للعلماء القيام به هو ملاحظة العمليات المادية التي تجري في الجهاز العصبي في أثناء مرور الذات بتلك الأحوال. ومن هنا، يكون الرد الذي قام به هؤلاء العلماء –في أغلب الأحوال– بمعنى التفسير. لكن لهذا التفسير تبعات فلسفية ما ورائية، من وجهة نظري؛ لأنه متى كان كافياً ووافياً، فإنه سوف يلغي الحاجة إلى افتراض (أو الجزم بـ) عنصر ما ورائي يفسر الحالة الذهنية الذاتية، حتى لو جاء هذا الافتراض من منظور الشخص الأول.

في ضوء الملاحظات السابقة أود أن أناقش أهم الاعتراضات التي سبق أن ذكرناها.

لأبدأ بمناقشة الإشكال الذي أثاره كربك، ويذهب فيه إلى أن العلاقة بين الحالة الدماغية وما يقابلها من حالة ذهنية هي علاقة إمكان لا علاقة ضرورة؛ أي ليس اتحاداً في الهُويّة.

في مقالته المعنونة بفرضية الهُويّة (The Identity Thesis)، يشير كربك إلى أن هناك بعض الأشياء التي بدت في مرحلة ما ممكنة، لكنها تحولت بعد تأمل أكثر إلى ضرورية (Kripke, 1997). كما تحدث كربك في بعض المواضع عن وجود مستويات من الضرورة (Laporte, Joseph, 2019). وفي موضع آخر (1997)، لمح كربك إلى أن نجاح التفسير المادي لطبيعة الأحوال الذهنية يعتمد على قدرته على تقديم وصف مادي تام للعالم، يبين فيه أن أي واقعة ذهنية هي قائمة وجودياً (Ontologically dependent) على واقعة مادية بصورة ضرورية لا لبس فيها. ومن وجهة نظره، لم يقدم أي باحث في نظرية الهُويّة حجة مقنعة ضد من يعتقد بخلاف ذلك (Kripke, 1997).

أقول أولاً –وبناء على الفقرة السابقة: لا مانع منطقياً ومن حيث المبدأ، من تحول علاقة الإمكان –التي أشار إليها كربك– بين الأحوال الذهنية والحالات الدماغية المادية إلى علاقة ضرورة، فإذا كان من الممكن منطقياً بالنسبة إليه إمكان تلك العلاقة من منطلق دلالي لغوي، فمن الممكن منطقياً أيضاً ضرورتها واتحادهما، إذا ما تبين بعدياً ذلك، خصوصاً وأن مبانيه الفلسفية ربما تجيز ذلك. والمرجح هنا في عملية ترجيح الإمكان على الضرورة أو العكس، هو قدرة النظرية العلمية على إمكان رد الأحوال الذهنية إلى الحالات المادية رداً (بمعنى التفسير) تاماً. بالطبع هذا الإشكال ربما يعده البعض جدلياً لا أكثر.

ثانياً، يرجح كربك علاقة الإمكان بين الحالة الذهنية والحالة المادية، على اعتبار إمكانية وجود الحالة المادية من دون وجود الحالة الذهنية التي تقابلها. والسؤال هنا: أهذا الحكم مبني على الإحاطة العلمية التامة بالبنى التحتية الحيوية العصبية التي صاحبت –بحسب البعض– الحالة الذهنية أو ولدتها، أم –كما لمحت تشيرتشلاند (Churchland, 1997)– قامت على حدوس وتحليلات نابعة من فلسفة

اللغة ؟ ليس الأول على الأرجح، بل –الأقوى– الثاني. لكن الذي يفصل في هذه المسألة هو –منطقياً– المعرفة العلمية، وليس التحليل المنطقي اللغوي للألفاظ، ولا فكرة الإمكان المنطقي، والمعقولية (Conceivability)؛ فالعلم هو من يمتلك –من وجهة نظري– إمكانية الإحاطة المعرفية بأبعاد الحالة الذهنية، وشروطها، وعناصرها، ومكوناتها، ومقوماتها، وآلياتها المادية؛ ومن ثم تحديد ظروف تحققها ووضعها الوجودي، وهل لتلك الأمور دور في تأسيس وتوليد ما نسميه بالحالة الذهنية، واكتسابها مذاقاً ذاتياً لا ينفك عنها، يمنع تكرارها في منظومات أو أوساط مغايرة لها مادياً وآلياً، كما أن احتمالية وجود حالة مادية معينة من دون وجود ما يقابلها من حالة ذهنية، ربما يدل على عدم الإحاطة بتمام العوامل العصبية الكيميائية الحيوية التي تشكلها وتقومها. فلا يدل –بالضرورة– حضور الحالة المادية (محفزات الألياف سي مثلاً) وغياب الحالة الذهنية على تباين الحالة المادية عن الذهنية، بل يدل –وهو التفسير الأقرب منطقياً وعلمياً– على احتمالية وجود عناصر عصبية وكيميائية حيوية لم تؤخذ –لموانع ظرفية وتقنية– في عين الاعتبار –كما سنرى لاحقاً– داخلة في تكوين الحالة الذهنية. فاستنتاج كربك المنطقي هو –من وجهة نظري– قفزة منطقية متسرعة على احتمالات أخرى ربما تكون أكثر منطقية من حيث التفسير والتبعات.

ثالثاً، يبدو أن استدلال كربك على مباينة الأحوال الذهنية للحالات العصبية الحيوية قائم –ضمن أمور أخرى– على نظريته المعنونة بالاسم الصارم، وهي نظرية محل أخذ ورد حول مضامين مفرداتها الرئيسة، التي تكون فيها العلاقة بين الدال والمدلول علاقة ضرورة. فالألم –بحسب كربك– هو اسم صارم للنمط، أو الظاهرة التي يدل عليها: فإذا كان شيء ما في حالة ألم، فهو بالضرورة كذلك (Kripke, 1997). وكذلك الحال مثلاً مع الحرارة والحركة الجزيئية؛ إذ كلاهما اسم صارم، والعلاقة بينهما علاقة ضرورة؛ إذ الحرارة هي حركة الجزيئات. الأمر نفسه ينطبق على اسم الألياف سي؛ إذ يمكن أيضاً اعتباره اسماً صارماً (Kripke, 1997). فبحسب كربك، كل من الألم والألياف سي أسماء صارمة لمدلولاتها، لكن العلاقة بينهما ليست علاقة ضرورة –كما هو الحال مثلاً مع الحرارة والحركة الجزيئية– بل

إمكان. ومن وجهة نظري، هذا الحكم بإمكان العلاقة بينهما ربما يعود إلى أمرين: الأول لفظي دلالي؛ حيث تختلف دلالة لفظة الألم، أو الإحساس بالألم، عن الألياف سي (السؤال هنا: هل الاختلاف بينهما من جنس الاختلاف الذي أشار إليه فريجه بين نجمة الصباح ونجمة المساء؟ حيث إن الأسماء مختلفة، لكن الماصدق واحد). لكن تباينهما اللفظي الدلالي لا يعني بالضرورة –كما نبهنا– اختلافهما الماصدقي. كما لا ينبغي اتخاذه –إن صح تخميني لطبيعة المقدمات التي استند عليها كربك– أرضية تؤسس عليها حقائق وجودية خارجية. والأمر الآخر، هو أن هذا الحكم مبني على التصور العلمي للاتحاد والرد (Kripke, 1997)؛ أي اتحاد نمط بنمط، كاتحاد الحرارة بالحركة الجزيئية، والديناميكا الحرارية بالميكانيكا الإحصائية، لكن هذا التصور للرد –من وجهة نظري– غير دقيق، ولا ينطبق على الحالة مورد النقاش، حتى لو تبناه بعض أنصار الرّدية المادية؛ لأن الحالة الذهنية (الجانب الكيفي الظاهراتي في هذا المقام) ليست بظاهرة موضوعية كالحرارة والضوء، بل –كما سبق أن أشرت– ذاتية؛ لذا لا يصح النظر إلى علاقتها بالحالة العصبية الحيوية من الزاوية نفسها التي ينظر بها إلى العلاقة التي تقوم بين الحرارة والحركة الجزيئية.

هذا بالنسبة إلى بعض الإشكالات التي أثيرت من قبل كربك. فلأناقش الآن الإشكالات والاعتراضات الأخرى التي تنطلق تقريباً من الأرضية نفسها التي انطلق منها كربك، من مبدأ ليبنتز على وجه التحديد.

ومن هذه الاعتراضات، الاعتراض الذي أثاره توماس ناجل (Thomas Nagel) المعنون بـ «كيف يكون هو الشعور كخفاش؟»، الذي يستند إلى الجانب الظاهراتي (الخبرة الذاتية الواعية التي تمر بها الذات) للذات، سواء كانت تلك الذات ذات إنسان، أم أي كائن آخر يمتلك نصيباً من الوعي؛ كالخفاش مثلاً. فبحسب هذا الاعتراض، كون هذا الجانب ذاتي الطابع (منظور الشخص الأول) يجعله عصياً على المعرفة العلمية التي تتسم بسمة الموضوعية (منظور الشخص الثالث). من هنا، الخبرة الظاهراتية شيء، والحالة العصبية الحيوية المادية شيء آخر.

لكن ما الذي أعطى لتجربة الخفاش الذاتية الظاهراتية تلك الخصوصية الكيفية؟ أي ما الذي أكسبها ذلك المذاق الذاتي؛ بحيث جعلها عصية على التفسير العلمي الموضوعي؟ ربما الإجابة ببساطة هي: لأنه خفاش، لكن ما الذي يجعل الخفاش خفاشاً بالدرجة الأولى؟ ربما بنيته وهندسته الإدراكية (أي جهازه العصبي والكيميائي الحيوي)، وتكوينه العضوي، وطرق تعامله وتفاعله مع الطبيعة. كل ذلك –إضافة إلى أمور أخرى ربما– محصلة عملية طويلة ومعقدة من التطور، التي جعلت شكلاً من أشكال الحياة يتخذ تلك الهيئة النوعية من الوجود كخفاش. هذا التفرد والتنوع البيولوجي للكائنات الحية الذي جاء نتيجة آلية التطور، هو –على الأرجح– من أعطى لتجربتها الذاتية الواعية –على تقدير وجودها– مذاقاً ظاهراتياً كيفياً، أي إن البنية الإدراكية والحيوية الخاصة بنوع الخفاش هي –على الأرجح– مصدر خصوصية الخبرة التي يمر بها. فخبرته تلك ليست أمراً زائداً عن تلك المكونات العصبية والحيوية، بل هي نفسها عند قيامها بوظائفها بصورة طبيعية سليمة. فتنوع الكائنات الحية واختلاف خبراتها الظاهراتية –على تقدير وجودها– راجع إلى تنوع تكوينها الحيوي والإدراكي، بحيث لو تعطل جزء أو عنصر رئيس منه أو أصابه الخلل، ستتأثر كيفية الخبرة الذاتية التي يمر بها الكائن الحي.

وما يجري على حجة الخفاش يجري –من وجهة نظري– أيضاً على حجة الأحياء الأموات، أو حجة المعقولية كما أطلق عليها تشالمرز؛ إذ إمكان تخيل كائن مطابق تماماً –من الناحية المادية– لموجود واع (الإنسان) لكنه يفتقر إلى الوعي، لا يعني منطقياً وضرورياً أن الوعي شيء والبنية المادية شيء آخر، فلا لزوم منطقي بين الأمرين هنا، إذ يمكن –وهو الأرجح علمياً ومنطقياً– خلو هذا الكائن من مكونات وعناصر وآليات مادية لا نعلمها الآن، هي علة لظاهرة الوعي وغيرها من ظواهر ذهنية. وفي رأيي، لا يصح –بالذات في هذا المقام– استنباط حقيقة ما ورائية بناء على تجربة أو تخيل ذهني، لعدم انكشاف البنية المادية التحتية للعمليات والظواهر الذهنية بصورة كاملة.

إضافة إلى ما تقدم هناك أمر آخر، إذا ثبت ربما يعد عاملاً جوهرياً في تكوين البعد الظاهراتي للخبرة الذاتية، وينبغي أن يؤخذ في عين الاعتبار. فبحسب عالم الأعصاب يوهان مولر (Johannes Muller) (1801-1858)، «الإحساس ليس إيصال خاصية وحال الأشياء الخارجية إلى الوعي، بل خاصية وحال أعصابنا (nerves) إليه التي حفزت من قبل سبب خارجي» (an external cause) (Churchland, 1989, p. 21). هذا التصور لطبيعة الإحساس أدى –بحسب تشيرتشلاند– إلى تطوير فهمنا للكيفية التي تمثل فيها الأجهزة العصبية العالم الخارجي؛ إذ أصبح جلياً أنه –بمعنى ما– على الدماغ أن يعيد بناء (reconstruct) العالم من التأثيرات الواقعة على الأعصاب؛ مما يعني أن طبيعة العالم ليست معطاة لنا بصورة مطلقة؛ أي كما هو في ذاته[42] إذ العالم باعتبارات معينة نتاج أدمغتنا (Churchland, 1989). بناء على ذلك، يمكننا القول إن تجربة الخفاش الذاتية قائمة على الترجمة الدماغية الخاصة به للخصائص، والحالات العصبية التي تم تحفيزها من قبل البيئة المحيطة بها. وبما أن دماغه، أو جهازه العصبي بشكل عام، غير دماغ الإنسان، فترجمته، ومن ثم تجربته الذاتية الواعية، ستكون مغايرة لترجمة دماغ الإنسان وتجربته.

سأستخدم مضمون الفقرة السابقة كمدخل لمناقشة فكرة التحقق المتعدد التي أثارتها المدرسة الوظيفية ضد المسلك الرّدي المادي.

في الحقيقة أنا لست ضد الرؤية الوظيفية تماماً؛ إذ إن هناك بالفعل بعداً وظيفياً للأنشطة، والعمليات العصبية والكيميائية الحيوية، يمكن منطقياً محاكاته في صور أخرى من المادة بطرق مختلفة ومتنوعة. كما أن هناك نماذج من الوظيفية لها منحى ردي مادي واضح. خلافي هو مع تلك التي رفضت الرّدية المادية بناء على تصورها لإمكانية التحقق المتعدد للظواهر والأحوال الذهنية، كالألم مثلاً، في أكثر من منظومة مادية، مما يجعل –من وجهة نظرها– من الحالة الذهنية شيئاً، ومن أرضيتها المادية التي تحققت فيها شيئاً آخر. ومن وجهة نظري، هناك أكثر من مشكلة في هذا الاستنتاج، المشكلة الأولى: هي أن هذا التصور الوظيفي للعمليات

(42) ما بين القوسين من عندي.

والأنشطة العصبية يركز على جانبها الوظيفي فحسب، من دون اعتبار العناصر المادية الأخرى؛ كالمحتويات المادية التي يتشكل منها الجهاز العصبي، التي تلعب –كما سنرى بعد قليل– دوراً محورياً في عملية الإدراك بمختلف صوره، التي منها –من وجهة نظري– التجربة الظاهراتية. فما قامت به تلك المسالك هو تجريد (بمعنى التركيز على جانب دون آخر) الجانب الوظيفي وتمييزه عن الجانب المادي، ليصبح على إثر ذلك قابلاً للتحقق في أي وسط مادي[43]. لكن عملية التجريد تلك أغفلت العناصر المادية المرتبطة بالعمليات والأنشطة الدماغية والعصبية الخاصة بالنوع الإنساني، التي تجعل من تلك الظواهر الذهنية أحوالاً ذاتية تتصف بصفة الظاهراتية.

وتتعلق المشكلة الأخرى التي يعاني منها التفسير الوظيفي للظواهر الذهنية بتصورها لنمط التحقق المتعدد للظاهرة الذهنية، إذ هو يفسر الألم (حالة ذهنية) تفسيراً وظيفياً (كوسط بين مدخلات ومخرجات مثلاً) قابلاً للتحقق في أوساط مادية مختلفة. وهذا التفسير يرفع الطابع الذاتي الكيفي لحالة الألم لعموميته، كما ذكرنا آنفاً. وحتى لو لم يقم بذلك –افتراضاً–، فإن تحقق حالة الألم في حقول مادية مختلفة البنى سيرفع صفة الاشتراك المعنوي بين أفراد مفهوم الألم، ذلك على تقدير وجود دور جوهري وأساسي للبنى المادية في اكتساب ظاهرة الألم بعدها الظاهراتي الذاتي. وربما بقدر ما يتعمق التحليل الوظيفي في تحليل وتفكيك الجوانب العصبية والحيوية والكيميائية التي تتحقق فيها حالة الألم، زادت خصوصيتها وتفردها الوجودي، وتعذر تحققها بنفس مكوناتها وتركيبتها الوظيفية العصبية، والكيميائية الحيوية (البنية المادية التحتية) في وسط مادي آخر يمتلك طبيعة وبنية مادية تحتية مختلفة. ومن هذا المنطلق، التحقق المتعدد الذي تتحدث عنه المدرسة الوظيفية لا يبدو أنه تحقق تام لما يجعل الألم ألماً. بلى، قد تتحقق حالة الألم في الإنسان، وفي الأخطبوط مثلاً بصورة متشابهة، لوجود تاريخ تطوري مشترك لجهازيهما العصبي. لكن إذا ما قبلنا بوجود قدر من التفاوت العضوي والعصبي والتشريحي بين الجهاز

(43) ينبغي الالتفات إلى أن هذا التعميم هو إحدى النقاط الرئيسة التي أثارت اعتراضات عدة على التصور الوظيفي للظواهر الذهنية.

العصبي الخاص بالإنسان، وذلك الخاص بالأخطبوط الناجم عن اختلاف مسار تاريخهما التطوري، فربما ترجمتهما العصبية لانطباعاتهما وخبراتهما الحسية ليست متطابقة تماماً؛ مما يعني أن الألم الذي تحقق فيهما ليس من النوع نفسه؛ فالألم الذي يشعر به الأخطبوط ربما هو ليس الألم ذاته الذي يشعر به الإنسان، بل يشبهه، وهو ما يضعنا في سياق استدلالي مشابه للسياق الذي تناولنا فيه الخبرة الذاتية للخفاش.

لأختم هذا الجزء من النقاش بالحديث –بشكل موجز– عن سلامة استخدام مبدأ الهُويّة أو مبدأ ليبنتز –على تقدير وجود صيغة واحدة متفق عليها له– لتفنيد الرّدية المادية بناء على ما تقدم من ملاحظات.

بحسب صياغة كربك لهذا المبدأ، «إذا كان أ = ب، الاتحاد (أو التطابق) بين أ وب ضروري إذن؛ ومن ثم كل خاصية ذاتية لأحدهما يجب أن تكون خاصية ذاتية للآخر» (Kripke, 1997, p. 446)؛ فإذا كانت –على سبيل المثال– الحالة الدماغية (س) = حالة الألم (ج)، فهذا يعني –بناء على هذا المبدأ– أن الاتحاد بينهما ضروري، ومن ثم كل خاصية ذاتية لأحدهما يجب –بالضرورة– أن تكون خاصية ذاتية للآخر. وبما أن خاصية حالة الألم (ج) ليست بالضرورة خاصية للحالة الدماغية (س)، لإمكانها كما تقدم، فهذا يعني أن الحالة الدماغية (س) ≠ حالة الألم (ج)، وبهذا يبطل القول بالرد المادي البحت.

يلاحظ عليه الآتي:

أولاً، كما أشرت قبل قليل، الحكم باتحاد الأشياء أو عدم اتحادها (بالمعنى الواسع للفظة شيء) بعضها مع بعض متوقف –في الحالات التي تندرج ضمن حقول علوم الطبيعة– على معرفة تلك الأشياء، وعلاقة بعضها بالآخر معرفة تركيبية بعدية تامة تتجاوز –كما هو حاصل في مقامنا الحالي– النطاق الدلالي الذهني إلى النطاق الطبيعي الخارجي. فلا يكفي عدم التطابق المعنوي الدلالي لنفي التطابق العيني، وذلك فيما يخص علاقة حالة الألم، أو الظواهر الذهنية بشكل عام، بالحالة (أو البنية) الدماغية والعصبية، بل العكس هو المطلوب في هذه الحالة؛ حيث الفحص

العلمي هو وحده القادر على كشف طبيعة العلاقة الدلالية وواقعها بين الطرفين: أهي علاقة تمايز اتفاقي اسمي أم حقيقي؟ فلا يصح – من وجهة نظري– استخدام مبدأ ليبنتز معياراً لحسم العلاقة بين الظواهر الذهنية والأحوال العصبية الحيوية؛ لأنه على الرغم من كون الظواهر الذهنية معلومة علماً حضورياً (أي وجدانياً)، فإن دور الحالات العصبية الحيوية في تأسيسها يعرف بصورة بعدية تركيبية، وهو دور تقريباً لم تتكشف كل أبعاده بعد.

ثانياً، الثنائية الملاحظة هنا نابعة –بشكل رئيس وكما أشرنا في الأعلى– من النظر إلى الظواهر الذهنية من منظورين مختلفين تمام الاختلاف، وهما: منظور الشخص الأول (منظور ذاتي)، ومنظور الشخص الثالث (منظور موضوعي)، يؤكد وجودها (أي الظواهر) الأول، ولا يلاحظها الثاني. هذا يعني –فيما يعنيه– أن التباين هنا بين الحالتين –المادية والذهنية– لم يلاحظ من الجهة نفسها، بل من جهتين (أو ملحظين) مختلفتين من حيث الطبيعة، إذ هو موجود بحسب جهة (منظور الشخص الأول)، لكنه غير موجود بنفس نحو هذا الوجود بحسب جهة أخرى (منظور الشخص الثالث). بناء عليه، لا يبدو –في رأيي– أن تطبيق مبدأ ليبنتز مناسب في هذا المقام.

ثالثاً، هناك نقطة غاية في الأهمية ينبغي –من وجهة نظري– أن تؤخذ في عين الاعتبار عند استخدام مبدأ ليبنتز، لبيان طبيعة الصلة بين الأحوال الذهنية والحالات المادية (أو العصبية بما في ذلك الدماغية) تتعلق بالمقصود بالحالة المادية المذكورة في المعادلة محل النقاش (أي تساوي الحالة الذهنية والحالة المادية). فكربك فسرها –مثلاً– بمحفزات الألياف سي، لكن ربما يفسرها بعض من علماء الأعصاب والكيمياء الحيوية بصورة أخرى؛ بحيث تتضمن –بالإضافة إلى محفزات الألياف سي– عناصر أساسية أخرى، وهو ما سنراه لاحقاً. ومن المؤكد أن العثور على مثل هذا التفسير –على تقدير عدم وجوده في الوقت الحاضر– ممكن جداً من الناحية المنطقية والعلمية. ومن الممكن أيضاً أن يكشف هذا التفسير العلمي عن الآلية (Mechanism) العصبية الحيوية والعضوية التي تسبب الحالة الذهنية،

بحيث تكون تلك الحالة مخصوصة بهذا النمط أو النوع من التركيب البنيوي الآلي، ليكون سبباً كافياً في رد الحالة الذهنية إلى عناصر ونظم مادية. وإذا ما التفتنا بعناية إلى تلك الإمكانية، ربما سندرك وجود نوع من التسرع في البت بعدم مساواة الحالة الذهنية بالحالة المادية بناء على هذا المبدأ؛ لأنني أعتقد بأن ماصدق الحالة المادية غير متعين –على الأقل في الوقت الحاضر– بصورة تامة بحيث يسمح لنا بالقيام بذلك.

ثانياً - أرجحية الرّدية المادية في تفسير الظواهر الذهنية على ما سواها من مذاهب فلسفية:

لماذا الرّدية المادية هي المقاربة الأكثر ترجيحاً لفهم طبيعة العلاقة بين الظواهر الذهنية والمادية؟ هي الأكثر ترجيحاً لأسباب علمية وفلسفية، وقد أشرت إلى بعض منها في الفقرات السابقة، أما الأخرى؛ فهي مبنية على ملاحظة وجود رابط سببي جوهري بين ما نصفه بالظاهرة الذهنية، وبين بنى مادية دماغية وعصبية حيوية معينة؛ بحيث إن أي خلل يصيب تلك البنى المادية يؤثر سلباً على الظاهرة الذهنية، سواء من ناحية طبيعتها (نوعها، وكيفيتها، وأدائها) أو حتى وجودها. لأطرح بعض الأمثلة المستقاة من بعض علوم الأعصاب التي قد تفيد في توضيح تلك الرابطة، وتوقف سلامة الظاهرة الذهنية ووجودها على سلامة البنى المادية ووجودها من الناحية الوظيفية والعنصرية.

لأبدأ بمقدمة عامة عن الجهاز العصبي. يتكون الجهاز العصبي من جزأين رئيسين: النظام المركزي العصبي (Central Nervous System) (CNS)، الذي يحتوي على الدماغ والحبل الشوكي (Spinal Cord)، والجهاز العصبي المحيطي (Peripheral Nervous System) (PNS)، الذي يحتوي على النظام الحركي اللا إرادي والمحيطي الحسي الإرادي (Baars and Gage 2010).

بالنسبة إلى بنية الدماغ، التصور العلمي المعاصر له يأخذ الشكل الآتي[44]: يتكون الدماغ من أجزاء عدة، كل واحد منها يختص بوظيفة معينة لا تعمل بصورة

(44) اعتمدت في هذه الجزئية على (Damasio, Antonio, 1994).

مستقلة، بل تُسهم في نظم أكبر (larger systems) مؤلفة من تلك الأجزاء؛ فلا توجد -بحسب النظرة العلمية المعاصرة- مراكز (centers) وحيدة للرؤية، أو اللغة، أو العقل، أو السلوك الاجتماعي، كما كانت تفترض الرؤية العلمية التقليدية، إذ كل ما هو موجود نظم مكونة من عدة وحدات دماغية مرتبط بعضها مع بعض (several interconnected brain units)، تأخذ -تشريحياً (anatomically) وليس وظيفياً- محل المراكز التي افترضتها النظريات القديمة (أهمها نظرية علم فراسة الدماغ (Phrenology)، المبسوطة من قبل فرانز جوزيف غال (Franz Joseph Gall) في نهاية القرن السابع عشر من الميلاد). وتلك النظم مكرسة للقيام بعمليات منفصلة نسبياً، وتشكل الأساس الذي تقوم عليه الوظائف الذهنية. ومن المتفق عليه أيضاً، أنه بفضل موقعها داخل النظام، تُسهم تلك الوحدات المنفصلة في تزويد نظام التشغيل (system operation) بمكونات مختلفة بعضها عن بعض، وبهذا الاعتبار هي (تلك الوحدات) غير قابلة للتبادل (not interchangeable).

وفيما يخص النظام العصبي، الجزء من الدماغ الذي انصب اهتمام علم الأعصاب عليه هو القشرة الدماغية (Cerebral Cortex) (Damasio 1994). القشرة الدماغية بمثابة العباءة التي تغطي كل سطح المخ (Cerebrum)، بما في ذلك الأشياء التي تقبع في عمق الفجوات (Crevices) المعروفة بالشقوق (Fissures) والأخاديد (Sulci) التي أعطت الدماغ هيئته المطوية. وكل المادة الرمادية (Gray Matter) التي تقع أسفل القشرة تسمى تحت القشري (Subcortical)، أما الجزء التطوري الحديث من القشرة الدماغية؛ فيسمى القشرة المخية الحديثة (Neocortex)[45]. ومعظم القشرة التطورية الأقدم يسمى قشرة الحوفي (Limbic Cortex). والأقسام الرئيسة لقشرة الحوفي هي: حزامية التلفيف (Cingulate Gyrus) الموجودة في القشرة الدماغية، واللوزة (Amygdala) والدماغ الأمامي القاعدي (Basal Forebrain)، وهما مجموعتان من النوى أو النويات (Nuclei).

هذا من جانب، ومن جانب آخر يتكون النسيج العصبي من خلايا عصبية

(45) سمي هذا الجزء القشرة الحديثة؛ لأنه ظهر [عند الثدييات] قبل 200 مليون سنة. كما أن من يمتلك تلك القشرة هي الثدييات الضخمة (Baars, Bernard J. and Gage, Nicole M., 2010).

(Neurons) مدعومة من الخلايا الدبقية (Glial Cells). وتلك الخلايا العصبية ضرورية لنشاط الدماغ، وهناك الملايين منها في الدماغ منظمة على هيئة دوائر محلية (Local Circuits)، تشكل بدورها المناطق القشرية (Cortical regions) (إذا كانت مرتبة على هيئة طبقات)، أو النويات (إذا ما تجمعت على هيئة مجموعات لا طبقية). أخيراً، تترابط المناطق القشرية والنويات لتشكل نظم النظم (Systems of Systems) بصورة متصاعدة ومتدرجة من حيث التعقيد. وباعتبار التدرج، جميع الخلايا العصبية والدوائر المحلية مجهرية (Microscopic)، أما المناطق القشرية والنويات والنظم؛ فهي جرمية (Macroscopic).

وبالنسبة إلى مكونات الخلية العصبية (Neuron)، فهي تتكون من عناصر رئيسة ثلاثة: 1 – جسم الخلية (Cell Body)، 2 – خيط المخرج الرئيس (A main output fiber, the axon)[46]، 3 – خيوط (أو ألياف) المدخلات (Input fibers, or the dendrites). تترابط الخلايا العصبية فيما بينها بشكل دوائر تحتوي على ما يعادل الأسلاك الكهربائية الموصلة (أي على ألياف المخرجات الرئيسة، الأكسون)، والوصائل أو المشابك (Synapses)، وهي عبارة عن نقاط التقاء الأكسون مع خيوط مدخلات (Dendrites) الخلايا العصبية الأخرى.

وعندما تكون الخلايا العصبية نشطة، ينطلق منها تيار كهربائي بعيداً عن جسم الخلية نزولاً إلى الأكسون، يوصف هذا التيار بإمكان العمل (Action Potential)[47]. وعندما يصل هذا التيار إلى المشبك أو الواصلة، فإنه يعمل على إطلاق مواد كيميائية تعرف بالنواقل العصبية (Neurotransmitters)[48] التي تعمل بدورها على المستقبلات (Receptors)[49].

(46) الأكسون خيط مستقيم طويل له عدة أفرع عند طرفه. ويقوم الأكسون بنقل المعلومات إلى الخلايا الأخرى. وما يستقبل تلك المعلومات إما التغصنات (dendrite) أو جسم الخلية (cell body). وتلك المعلومات تكون محفزة أو مثبطة (Kalat, 2014) (either excitatory or inhibitory).

(47) إمكان العمل هو «تنبيه (excitation) يرتحل عبر الأكسون بقوة ثابتة مهما طال أمد الرحلة» (Kalat, 2014).

(48) سيتم شرح هذا المصطلح لاحقاً.

(49) تقوم المستقبلات (receptors) بتحويل أنماط الطاقة المادية الواردة من البيئة الخارجية إلى نشاط عصبي (إشارات عصبية) (Baars and Gage, 2010).

هذه –باختصار شديد– بنية الدماغ، أو الجهاز العصبي بصورة عامة: الدماغ عبارة عن النظام الأعلى للنظم (supersystem of systems)؛ حيث يتكون كل نظام من مناطق قشرية جرمية صغيرة مترابطة فيما بينها بصورة مفصلة، ونويات تحت قشرية مكونة من دوائر مجهرية محلية، المكونة بدورها من الخلايا العصبية التي ترتبط فيما بينها عن طريق المشابك أو الوصائل (Damasio 1994).

ومن جانب آخر، هناك توجه بدأ تقريباً منذ أكثر من قرن، ونما مع مرور الوقت باطّراد ولكن ببطء، يحاول دراسة الوعي وفهمه، وغيره من ظواهر ذهنية وإدراكية، عبر النظر في المبادئ والآليات التحتية لوظائف الدماغ المعقدة. وما ساعد وشجع على نمو هذا التوجه – بالذات في العقود الأخيرة– هو استحداث تقنيات متطورة للمسح الضوئي للدماغ، مثل: التصوير بالرنين المغناطيسي الوظيفي (Functional Magnetic Resonance Imaging fMRI)، ومخطط كهربائية الدماغ (Electroencephalography EEG)، والرنين المغناطيسي المنتشر (Diffusion MRI)، والرسم المغناطيسي للدماغ (Magnetoencephalography MEG)، والتصوير المقطعي بالإصدار البوزيتروني (Positron Emission Tomography PET). وهي تقنيات –إضافة إلى بعض التقنيات القديمة مثل قياس تدفق الدم في الدماغ– سمحت للعلماء والباحثين في علوم الإدراك والأعصاب بالمتابعة، ومن ثم تكوين صورة أقرب وأدق للكيفية التي تجري بها أنشطة الدماغ والجهاز العصبي بصورة عامة، ودورها في العمليات الذهنية والإدراكية. وينبغي التنبيه هنا على نقطة غاية في الأهمية، وهي تعدد الطرق والأساليب التي استخدمها العلماء في محاولة فهم هذا الدور. ومن أهم تلك الطرق وأكثرها نجاحاً ربما في فهم واكتشاف العلاقة بين بنية الدماغ والجهاز العصبي، وبين العمليات الذهنية الإدراكية، تلك التي استخدمها علم النفس العصبي التجريبي (Experimental Neuropsychology) وبعض العلوم العصبية الأخرى (كعلم الأعصاب المعرفي، وعلم الإدراك العصبي). يحاول هذا الحقل من علم الأعصاب العثور على رابطة منتظمة ومطردة بين تلف أحد أقسام الدماغ (النظم العصبية ومكوناتها بتعبير أدق)، وبين الاضطرابات السلوكية (ومنها العاطفية) والإدراكية (Damasio 1994). ويتم التثبت من وجود تلك الرابطة عبر تطبيق آلية اختبار تسمى

اللا ترافــق المــزدوج (Double Dissociations)، وتأخذ الصورة الآتية: التلف الذي يصيب الموقع أ يسبب الضرر ب وليس الضرر ج، بينما التلف في موقع س يسبب الضرر ج وليس ب (Damasio 1994). مثال على ذلك، لاحظ بعض الباحثين في بعض الحالات –من أشهرها حالة المريض فينيس غايج (Phineas P. Gage)– وجود علاقة سببية بين الضرر الذي يقع على بعض أقسام الدماغ، وبعض الاضطرابات الإدراكية والسلوكية. ففي حالة غايج، مثلاً[50]، لوحظ أن سمات شخصيته الأخلاقية تغيرت تماماً بعد دخول شظية (قضيب من الحديد) في دماغه انطلقت من جراء انفجار وقع بقربه، فلم يعد مراعياً للأعراف الاجتماعية السائدة، ولا ملتزماً بالقيم الأخلاقية العامة، كما يعرف عنه. والأمر نفسه ينطبق على قدراته في التخطيط للمستقبل واتخاذ القرار، كل ذلك تدهور بصورة كبيرة. وبناء على دراسة تلك الحالة وغيرها من حالات مشابهة دراسة مستفيضة طبقاً للقاعدة المذكورة، استنتج العلماء أن السبب فــي تغير سلوك المريض غايج وأقرانه من المرضى، يعود لتعرض أجزاء معينة مــن الدماغ للتلف. فعلــى سبيل المثال، أثبتت الدراســات أن التلف الذي يصيب المــادة البيضــاء التي تقــع تحـت المناطق المحجرية (orbital) والمتوسطة (medial) للفص الجبهي (frontal lobe)، يــؤدي إلــى تقلص المشاعـر والأحاسيس بصــورة جــذرية، لكـن من دون التأثيـر على أدوات الإدراك الحســي الرئيســة، والذاكـرة، واللغــة، والحـركة (Damasio 1994). كما أظهرت الأدلة المخبرية بصورة مستفيضة النتائج الأولية الآتيــة: 1 – إذا كان قسم البطني إنسي (ventromedial sector) مشمولاً في الضرر، فإن الضـرر الثنائي الذي يصيب القشرة الأمامية (prefrontal cortices) يصاحب –بصورة متسقة– اعتلالاً في القيام بالاستدلال/ القرار، والمشاعر/ الأحاسيس (emotions) (Damasio 1994). 2 –عنـد وضـع الاعتلال فــي القيام بالاستدلال/ القرار، والمشاعر/ الأحاسيس بإزاء الجانب العصبي النفسي السليم، سنجد أن المنطقة الأكثر تضـرراً هـي منطقة البطني إنسي، كما أن النطاق الشخصي/ الاجتماعي هو

(50) ليست هي الحالة الوحيدة بطبيعة الحال؛ إذ إن هناك حالات أخرى. والسبب في اشتهار هذه الحالة هو أنها كانت تمثل نقطة تحول في نمط دراسة الدماغ (أو الجهاز العصبي بشكل عام) وأدواره الإدراكية والسلوكية.

الأكثر تأثراً (Damasio 1994) . 3 – هناك منطقة في الدماغ –مجمع القشرة الحسية الجسدية (the Complex of Somatosensory Cortices) في النصف الأيمن– تلفها يؤدي إلى مشكلات في القيام بعملية الاستدلال/ القرار، وكذلك في المشاعر/ الأحاسيس (Damasio 1994). بناء على ما سبق، يبدو –بحسب الدراسات المخبرية التي قام به العلماء– أن هناك مجموعة من النظم في الدماغ مخصصة لعمليات اتخاذ القرار والاستدلال، بالذات تلك المرتبطة بالنطاق الشخصي والاجتماعي (Damasio 1994). كما أثبتت الدراسات التي أقيمت على تلف الدماغ البؤري (Focal Brain Damage)[51]، أن هناك نظماً عصبية مخصصة للعواطف (Damasio 1994). فعلى سبيل المثال، يرى داماسيو أن التلف الذي يصيب الجهاز (أو النظام) الحوفي يعوق (impairs) عمل العواطف الأولية (Primary Emotion) (العواطف التي توجد في المرحلة المبكرة من العمر؛ مثل: الخوف)، بينما يؤدي التلف الذي يصيب القشرة الأمامية (Prefrontal Cortices) إلى تهديد عمل العواطف الثانوية (Secondary Emotion) (أي العواطف التي نختبرها كبالغين، والتي شيدناها بصورة متدرجة في الفترات العمرية اللاحقة على قواعد العواطف الأولية المبكرة؛ مثل: الحزن على فقد صديق، أو الفرح عند مشاهدة شخص لم نره منذ فترة طويلة) (Damasio 1994).

مثال آخر على الآثار السلوكية والإدراكية للأضرار التي تصيب أجزاء محددة من الدماغ، هناك حالة يطلق عليها اسم عمه العاهة أو عدم إدراك العاهة (Anosognosia). تشير تلك الحالة –كما هو واضح من الاسم– إلى عدم قدرة المريض على الإقرار بإصابته بالمرض (Damasio 1994). لاحظ العلماء أن هذا العارض يظهر بصورة منتظمة مع تلف يصيب منطقة معينة في الدماغ (بسبب جلطة مثلاً)، وفي تلك المنطقة فقط تلف يصيب مجموعة مختارة من القشرة الدماغية اليمنى المعروفة باسم النظام الحسي الجسدي (Somatosensory)، وهو النظام المسؤول عن الإحساس الخارجي (اللمس، والحرارة، والألم)، والإحساس الباطني بموقع المفاصل وحالة الأحشاء والألم، كما أنه يحتوي على القشرة الموجودة في المنطقة من الدماغ المسماة بالعزل (Insula) (Damasio 1994).

(51) الضرر الذي يصيب اللوزة (Amygdala) على وجه الخصوص، كما سيأتي.

كما لاحظ العلماء أهمية الدور الذي تلعبه اللوزة (Amygdala) (أحد أهم مكونات الجهاز الحوفي) في التعليم، والذاكرة، والعواطف، والانتباه عند الاستجابة لمحفزات انفعالية محددة، محفزات الخوف على سبيل المثال (Gazzaniga, Ivry, Mangun, 2019)؛ إذ اكتشفت بعض الدراسات أن سبب عدم شعور بعض الأفراد بالخوف، وعدم استجابتهم لمحفزاته استجابة عضوية طبيعية تجنبهم مصادر التهديد، هو وجود خلل في (أو تلف أصاب) هذا العضو من الدماغ (Gazzaniga, Ivry, Mangun, 2019). فمن دون اللوزة ستضيع القيمة التطورية للخوف (Gazzaniga, Ivry, Mangun, 2019). إضافة إلى ما تقدم، لاحظ العلماء أن الضرر الذي يصيب اللوزة يمكن أن يعوق القدرة على تعرف تعابير الوجه المختلفة للمشاعر، وكذلك على ذاكرة تعرف الوجوه (Aggleton and Young, 2000).

هذا من جهة، ومن جهة أخرى ذكرنا قبل قليل دور تقنيات المسح الضوئي في المساعدة على إعطاء العلماء والباحثين صورة أقرب وأدق للعمليات الدماغية والعصبية، التي تجري في أثناء المرور بالأحوال الذهنية. لأتحدث قليلاً عن الدراسات التي استعانت بواحدة من تلك التقنيات، تقنية التصوير بالرنين المغناطيسي الوظيفي (Functional Magnetic Resonance Imaging fMRI)، لفهم آلية الألم (ظاهرة ذهنية طالما استعان بها بعض الفلاسفة كمثال يثبت تغاير الحالة الذهنية وتباينها عن الحالة المادية).

تخبرنا تلك الدراسات أن البنى الدماغية الأكثر نشاطاً –وهو نشاط يجري بصورة متسقة ومطردة– أثناء عملية الألم تتضمن الآتي: الجزيرة المقابلة (Contralateral Insula)، ولحاء القشرة الحزامية الأمامية (Anterior Cingulate Cortex)، والمهاد البصري (Thalamus)، والقشرة الأمامية الحركية (Premotor Cortex)، والفرس المخيخي (Cerebellar Vermis) (Hardcastle and Stewart, 2009). وبتفصيل أكثر، من الممكن –عبر استخدام تقنية المسح الضوئي الجديدة– رؤية شبكة مركزية (Central Network) لمعالجة الألم وهي تمتد من المهاد البصري، إلى القشرة الحسية الأولية والثانوية (Primary and Secondary sensory Cortex) (التي ربما تقوم، على التوالي بتشفير المعلومات الحسية التمييزية (Sensory-Discriminative information)، والتمييز

(recognition)، والتعلـم، والـذاكـرة)، والجـزيـرة (المرتبطة بـردود الأفعـال اللاإرادية (autonomic reactions) والجوانب المؤثرة للتعليم والذاكرة)، والقشرة الحزامية الأمامية (المرتبطة بالشعور بالانزعاج، ويبدو أيضاً أنها تقوم بدمج المعلومات الخاصة بالحدة (intensity)، والشعـور (affect)، والإدراك (cognition)، وانتقـاء ردود الأفعـال) (Hard-castle and Stewart, 2009). وبعد ذلك، تنتقل المعلومات المتعلقة بالألم إلى القشرة الجبهية (Prefrontal Cortex). من هنا، النشاط الذي يلاحظ في عملية معالجة الألم هو نشاط موزع على أجزاء محددة من الدماغ؛ ومن ثم فالقسمة التقليدية لتلك العملية إلى حسية تمييزية وأخرى وجدانية تحفيزية (affective-motivational processing)، هي قسمة بسيطة جداً (Hardcastle and Stewart, 2009).

ماذا أخبرتنا الدراسات المبنية على تقنية التصوير بالرنين المغناطيسي الوظيفي (fMRI) أيضاً عن الألم؟ على المستوى النظري، زودتنا تلك التقنية بالمعلومات الآتية (Hardcastle and Stewart, 2009):

1 – لـم يعـد بالإمكان الدفـاع عـن النظريات التقليدية التي تصور الألـم على أنه مجموعة مسارين من الدوائر المتسلسلة (two-pathway set of serial circuits) المذكورة آنفاً (التصور الذي بنى عليه كربك فهمه ووصفه للألم، على ما يبدو)؛ إذ تبين أن الألم شبكة متوازية (parallel network) موزعة على أجزاء مهمة من الدماغ؛ وبذا فإن ما يجري في القشرة في أثناء عملية معالجة الألم، هو أمر بالغ التعقيد بدرجة تفوق قدرة النظريات القديمة على تفسيره. وستتضح تلك النقطة أكثر عند التأمل في الاختلافات الموجودة في العمليات التي تجري في اضطرابات الألم (pain disorders)؛ فأي نظرية في الألم ينبغي أن تقبل بالنظام المثبط للألم (pain inhibitory system)، والاختلافات الموجودة في الحسابات (computations) الفعلية التي يقوم بها الدماغ أيضاً، والاختلافات في مناطق الدماغ المستخدمة، أو تلك المشدد عليها تحت ظروف عملياتية مختلفة (different processing conditions). بناء عليه، تدفق المعلومات الذي يجري في عملية معالجة الألم (Pain processing)، ليس مجرد تحرك المدخلات (inputs) عبر مجموعة من الوحدات أو المكونات (Modules) السلبية المنفعلة، إذ يبدو أن كل شيء في الدماغ يؤثر على كل شيء آخر.

2 – أخبرتنا تلك التقنية أيضاً، أن الاختلافات الفردية في الشعور بالألم مهمة بقدر القواسم المشتركة بين الأفراد؛ إذ يختلف الأفراد بعضهم عن بعض في الشعور بالألم بصورة جلية، وهو أمر ينبغي أن يؤخذ في الحسبان من الناحية النظرية والعلاجية. وهو ما حدث عندما قامت دراسات الألم المبنية على تقنية التصوير الضوئي بالابتعاد نسبياً عن التعميمات الواسعة التي تركز على القواسم المشتركة بين الأفراد، والتركيز أكثر على تفاصيل محددة مرتبطة بالأفراد أنفسهم وبحالات فردية معينة، بالذات تلك الشريحة التي تعاني من اضطرابات الألم. من هنا، من الخطأ اعتبار الألم حالة تتحقق بشكل متساوٍ في أفرادها.

استخلص العلماء مما سبق نتيجة غاية في الأهمية، مفادها أن تفاوت الأفراد في الشعور بالألم سيجعل من نظريات علم الأعصاب مغايرة لنظريات علوم الطبيعة، على اعتبار أن الأولى تركز على وصف «كيف أن الاختلافات في البنية التشريحية (Anatomy) والوظيفية العضوية (Physiology) ينتج عنها تفاوت في الإدراك والخبرة [الذاتية]» (Hardcastle and Stewart, 2009, p. 194)، في حين تقوم الأخرى بالتركيز على الخروج بتعميمات تسري على مجموعة واسعة من الظروف المختلفة (Hardcastle and Stewart, 2009). بناء عليه، ربما يكون (معنى) الرد المستخدم في العلوم الطبيعية وفلسفة العلم وما رافقه من معايير وشروط، غير مناسب لاستعماله في حقل علم الأعصاب، وفي حقل علوم الألم على وجه الخصوص، لاختلاف طبيعة الوصف والموصوف.

3 – من أهم النتائج التي أثمر عنها استخدام تقنية التصوير الضوئي، تغيير تعريف الألم نفسه (Hardcastle and Stewart, 2009). يدعي التعريف التقليدي الذي طرحه الاتحاد العالمي لدراسة الألم (IASP) أن تعرف الألم يتم من خلال ما يخبره الأفراد عن أنفسهم، وليس من خلال حالتهم المادية (الجسدية) الفعلية، على اعتبار أن الألم هو «دوماً حالة ذاتية (subjective) نفسانية (psychological)» (Hardcastle and Stewart, 2009, 194) من هنا، إذا ادعى شخص ما أنه يشعر بألم، فهو فعلاً في ألم، بغض النظر عن كيف تم تشغيل وتفعيل الدماغ أو مستقبلات الأذية (nociceptors).

فـي المقابـل، فـي سنـة 2004 أشـار المجلس الوطنـي للبحوث فـي كندا (National Research Council of Canada) إلى أن الهدف «النهائي من دعمه لدراسات الألم القائمة على تقنية التصوير الضوئي، هي تطوير تقنية تصوير ضوئي (MR) تسمح للطبيب السريري (Clinician) بتقييم ... ما إذا كان المريض يعاني فعلاً من الألم (مزمناً كان أو غير مزمن)»، بذا تحول الألم –بحسب هذه المقاربة– من كونه أمراً «ذاتياً إلى شيء مادي بحت» (Hardcastle and Stewart, 2009, p. 195). فما تقترحه تلك المؤسسة، إذن، هو أن تحديد إذا ما كان الأفراد يعانون فعلاً من ألم يتم عبر النظر إلى ما يجري في أدمغتهم، وليس عبر ما يبلغونه عن أنفسهم (Hardcastle and Stewart, 2009). تعريف الألم هنا لا يقوم على الخبرة الظاهراتية (أو الشعور الظاهراتي)، كما فعلت بعض المدارس الفلسفية التقليدية، بل على «النشاط الدماغي» (Hardcastle and Stewart, 2009, p. 195).

هذا بالنسبة إلى استخدام تقنيات المسح الضوئي المتقدمة في فهم بعض الظواهر الذهنية. ومن جهة أخرى، التفت العلماء إلى الدور المهم الذي تلعبه النواقل العصبية (Neurotransmitters) في جملة من الأحوال الذهنية. النواقل العصبية مادة كيميائية تطلق عند وصول التيار الكهربائي المسمى باستعداد العمل إلى نقطة التشابك (Synapse) بين الخلايا العصبية، حيث تقوم (المادة الكيميائية) بتشغيل مستقبلات الخلايا العصبية الأخرى (Damasio 1994, Kalat, 2014). ومن أهم النواقل العصبية: غلوتامات *(Glutamate)* وغابا *(GABA)*.

ويعد الناقل غلوتامات أكثر النواقل انتشاراً، ويعثر عليه في أغلب المشابك المهيجة (أو الإثارية) السريعة (fast excitatory synapses) في الدماغ والحبل الشوكي (spinal cord). كثرة هذا الناقل ربما تكون سامة وقد تؤدي إلى موت الخلية، كما أنه ضليع في بعض الأمراض التي تصيب الجهاز العصبي؛ مثل: الجلطة، والصرع، وأمراض التنكس العصبي (neurodegenerative diseases) مثل الزهايمر وباركنسون (Gazzaniga, Ivry, Mangum, 2019).

أما الناقل غابا؛ فيعد ثاني النواقل انتشاراً، وهو مؤلف من الغلوتامات (Glutamate). وقد يؤدي النقص في مستويات الناقل غابا إلى نوبات مرضية

(seizures)، وزيادة في الاستجابة العاطفية، ومعدل نبضات القلب، وضغط الدم، وامتصاص الماء والغذاء، والتعرق، وإفراز الإنسولين، وحمض المعدة، وحركية القولون. كما أن كثرته تؤدي إلى الغيبوبة (Gazzaniga, Ivry, Mangum, 2019).

ومن النواقل المهمة الأخرى، الناقل دوبامين *(Dopamine)*. هذا الناقل –أو مساراته بتعبير أدق (dopaminergic pathways)– ضليع في وظائف معينة؛ مثل: التحكم الحركي والإدراكي (cognitive and motor control)، والحافز (motivation)، والاستثارة (arousal)، والتعزيز (reinforcement)، والمكافأة (reward)، وأمور أخرى. كما أن نقصانه مرتبط بأمراض عدة؛ مثل: مرض باركنسون، وانفصام الشخصية، وقصور الانتباه وفرط الحركة (attention deficit hyperactivity disorder)، والإدمان (Gazzaniga, Ivry, Mangum, 2019).

ومن النواقل أيضاً، الناقل سيروتونين *(Serotonin)*. وهذا الناقل ضليع في تنظيم المزاج، وحرارة الجسم، والشهية، والسلوك، وانقباض العضلات، والنظام القلبي الوعائي، ونظام الغدد الصماء، كما أنه يؤثر على التعلم والذاكرة (Gazzaniga, Ivry, Mangum, 2019).

أما الناقل **نوربنفرين** *(Norepinephrine)*؛ فيساعد على تجهيز الجسم وأعضائه للعمل؛ إذ يعمل على زيادة الاستثارة (arousal)، والاحتراس (alertness)، والحذر، ويعمل أيضاً على تركيز الانتباه، وتعزيز تكوين الذاكرة، ويرافق تلك التأثيرات القلق الزائد والأرق (Gazzaniga, Ivry, Mangum, 2019).

أخيراً وليس آخراً، هناك الناقل **نوروستيرويدز** *(Neurosteroids)*. وهذا الناقل ضليع في التحكم عمليات بيولوجية عصبية عدة، منها: الإدراك (cognition)، والتوتر، والقلق، والاكتئاب، والعدوانية، ودرجة حرارة الجسم، وضغط الدم، والتحرك (أو التنقل) (locomotion)، وسلوك التغذية، والسلوك الجنسي (Gazzaniga, Ivry, Mangum, 2019).

مما سبق، جملة من الأسباب الفلسفية والأمثلة العلمية التجريبية التي ترجح –من وجهة نظري– الرؤية الرّدية المادية ترجيحاً منطقياً على ما سواها من مسالك لا ردية. وبالطبع هناك أمثلة أخرى تدعم هذا الترجيح لا يتسع المقام

لذكرها بصورة مفصلة، من علم الأعصاب، وعلم أعصاب الشبكة، وعلم النفس الإدراكي، والكيمياء الحيوية (على سبيل المثال، تأثير العوامل الجينية على السلوك ونمط الشخصية)، التي توضح الأثر المادي الجوهري في صياغة العمليات والظواهر الذهنية والإدراكية، وهندستها بما يتسق ربما مع الرؤية التي طرحها أرسطو في شأن العلاقة بين وظائف النفس والبدن.

نتيجة الدراسة:

تعد طبيعة العلاقة بين الظواهر الذهنية والأنظمة العصبية والكيميائية الحيوية من أهم المسائل المطروحة في حقل فلسفة الذهن، وربما أكثرها تعقيداً وغموضاً. لكن هذا لا يعني التوقف عن إبداء الرأي فيها ومحاولة حلها، مع احترام واقع عدم وجود حل قطعي نهائي في متناول اليد في وقتنا الحاضر ينهي بدوره الجدل الفلسفي الدائر حولها، مع اعتقادي بأن العلم في طريقه إلى ذلك. من هنا، رأينا في هذا البحث هو مجرد ترجيح مقاربة معينة للظواهر الذهنية على غيرها، وهو ترجيح قائم –من وجهة نظري– على أسس فلسفية وعلمية تجريبية.

تذهب هذه الدراسة إلى ترجيح الرؤية الرّدية المادية على غيرها من المسالك اللاردية. وفي سبيل دعم هذا الرأي، بسطنا أولاً فرضيتنا التي استوحيناها من تصور أرسطو لعلاقة بعض أقسام النفس بالبدن، الذي يفيد باتحاد تلك الأقسام به (البدن) اتحاداً يمنع –بحسب قراءتي– تكرارها كيفياً في أي صورة وبنية مادية مغايرة للبدن الذي يلائمها، ويناسب قواها ووظائفها التي (النفس) تعد تحققاً له، وذلك لدخول العنصر المادي في تأسيس الطابع الكيفي وتكوينه لانفعالات النفس. وهذا جزء تمهيدي من الاستدلال المقدم لترجيح الموقف الرّدي المادي.

أما الجزء الآخر؛ فينقسم إلى قسمين عامين: واحد فلسفي، وآخر علمي تجريبي، لكنه يستند إلى دعوى فلسفية مفادها، أن البت في مسألة العلاقة بين الظواهر الذهنية والمادية منوط بالعلوم الطبيعية؛ لأن طبيعة الحكم في تلك المسألة تركيبي بعدي وليس فلسفياً قبلياً، كما يذهب بعض فلاسفة الذهن. ويتضمن القسم الفلسفي الذي يمثل امتداداً استدلالياً للقسم الثالث من الورقة المتعلق بأرسطو، رداً على أهم الإشكالات

والاعتراضات التي أثيرت على المسلك الرّدي المادي، كما يتضمن أيضاً استدلالاً فلسفياً مبنياً على نتائج علوم الأعصاب، والإدراك، والنفس الإدراكي. أما القسم العلمي التجريبي؛ فيحتوي على عرض لبعض من أهم النتائج التي استخلصها علماء الحقول المذكورة، من تطبيق تقنيات المسح الضوئي الحديثة على الدماغ. كما يتضمن أيضاً توضيح ضلوع بعض النواقل الكيميائية في جملة من الظواهر الذهنية.

وإذا أخذنا ما تقدم من اكتشافات واستنتاجات علمية تجريبية (وهناك غيرها الكثير طبعاً) بعين الاعتبار، أعتقد أنها سترجح الموقف الرّدي المادي على ما سواه. فلو تأملنا في بنية الشبكة العصبية ومادتها الكيميائية الحيوية، والعمليات المعقدة التي تجري فيها، إضافة إلى التكوين العضوي الحيوي التشريحي للدماغ والجهاز العصبي بشكل عام، وعلاقة كل ذلك بما يسمى بالظواهر الذهنية، لأدركنا ألا قوام وجودياً لتلك الأحوال (بخصائصها الظاهراتية الكيفية المميزة لها) بمعزل عنها. من هنا، التمييز بين تلك الأحوال وبين العناصر المادية المذكورة هو تمييز أقرب –من وجهة نظري– إلى الاعتبارية منه إلى الواقعية، ومبني على منظور الشخص الأول غير المدرك لدور وطبيعة تلك العناصر المادية المعقدة والمتشابكة، المؤسسة والمشكلة لحالة الإدراك نفسها[52].

(52) من المهم جداً التنبيه على تطور يلوح في الأفق في عملية فهم مبادئ وآليات البنية التحتية المعقدة لوظائف الدماغ والإدراك (Bassett and Sporns, 2017)، وهو تطور يمهد لظهورعلم جديد في المعرفة العصبية باسم علم أعصاب الشبكة (Network Neuroscience). هذا التفاؤل في إحراز تقدم في عملية فهم آليات وظائف الدماغ والإدراك مبني على التوسع المتسارع من حيث النطاق، والسعة، والتعقيد، في المعطيات العصبية (neural data) التي تم تحصيلها من أجزاء كبيرة من الأنظمة العصبية. وهي معطيات تغطي مستويات متعددة من النظام (multiple levels of organization). تمثل معظم تلك البيانات الهائلة شبكات تشمل الارتباطات (interconnections) أو العلاقات التي تصل ما بين العديد من عناصر الأنظمة العصبية الحيوية واسعة النطاق (large-scale neurobiological systems). من الأمثلة على ذلك، تفاعل البروتين، والشبكات التنظيمية الجينية (genetic regulatory networks)، وصلات المشابك (synaptic connections)، والأنماط الديناميكية للإشارة العصبية (dynamic patterns of neural signaling)، والاتصال المقارن للنشاط الدماغي التلقائي المستثار للقيام بالمهام (spontaneous and task-evoked brain activity)، والتفاعلات التي تجري أثناء السلوك ما بين أنظمة الدماغ والبيئة (interactions among brain systems and the environment in the course of behavior) (Bassett and Sporns, 2017).

المراجع

ابن رشد، أبو الوليد. (1994). *تلخيص كتاب النفس*. تحقيق وتعليق الفرد ل. عبري. المجلس الأعلى للثقافة.

Aggleton, John P. and Young, Andrew W. (2000). The Enigma of the Amygdala: On its Contribution to Human Emotion. In Richard D. Lane & Lynn Nadel (Eds.), *Cognitive Neuroscience of Emotion* (p.p. 106 - 128). Oxford University Press.

Aristotle. (1941). The Basic works of Aristotle. In R. McKeon (Ed.). Random House.

Aristotle. (1993). De Anima: Books II and III. (D. W. Hamlyn, Trans.). Clarendon Press.

Armstrong, D. M. (1993). *A Materialistic Theory of the Mind.* Routledge.

Baars, Bernard J. and M. Gage, Nichole. (2010). Cognition, Brain, and Consciousness: *Introduction to Cognitive Science.* Elsevier Press.

Baggini, Julian & Peter S. Fosl. (2010). The Philosophers' Toolkit. 2nd ed., United Kingdom.

Bassett, Danielle & Sporns, Olaf. (2107, March). *Network Neuroscience. Nature Neuroscience, 20*(3). www.nature.com/articles/nn.4502.

Bickle, John. (2012). Who Says You Can't Do a Molecular Biology of Consciousness? In Schouten, M. & de Jong, H. (Eds.), *The Matter of The Mind: Philosophical Essays on Psychology, Neuroscience, and Reduction* (p.p. 275 - 297). Willy-Blackwell.

Block, Ned. (2007). *Consciousness, Function, and Representation.* MIT Press.

---. (2002). Troubles with Functionalism. In Chalmers, D. (Ed.), *Philosophy of Mind: Classic and Contemporary Readings* (p.p. 9498-). University Press.

Buechner, J. (2008). *Gödel, Putnam, and Functionalism.* Massachusetts: MIT Press.

Burnyeat, M. F. (1992). *Is an Aristotelian Philosophy of Mind Still Credible?* In Nussbaum, M. & Rorty, A. (Eds.), Essays on Aristotle's De Anima (p.p. 14 - 26). Clarendon press.

Chalmers, David J. (2009). The Two-Dimensional Argument Against Materialism. In: McLaughlin, B., Beckermann, A. & Walter, S. (Eds.), *The Oxford Handbook of Philosophy of Mind* (p.p. 313 - 335). Clarendon Press.

---. (2002). Consciousness and Its Place in Nature. In Chalmers, D. (Ed.), *Philosophy of Mind: Classic and Contemporary Readings* (p.p. 247 - 249). Oxford University Press.

Churchland, Patricia Smith. (1989). *Neurophilosophy: Toward a Unified Science of the Mind/Brain.* MIT Press.

Churchland, Patricia Smith. (1997) Can Neurobiology Teach Us Anything about Consciousness? In Block, N., Flanagen, O. & Güzeldere, G. (Eds.), *The Nature of Consciousness* (p.p. 127 -140). MIT Press.

Damasio, Antonio. (1994). *Descartes' Error: Emotion, Reason, and The Human Brain.* Penguin Books.

Daly, Chris. (2010). *An Introduction to Philosophical Methods.* Broadview Press.

Garson, Justin. (2015). *The Biological mind: A Philosophical Introduction.* Routledge.

Gazzaniga, Michael S. and Ivry, Richard B. and Mangun, George R. (2019). *Cognitive Neuroscience: The Biology of the Mind.* W. W. Norton & Company Press.

Godfrey-Smith, Peter. (2104). *Philosophy of Biology.* Princeton University Press.

Feigl, Herbert. (2002). The Mental and the Physical. In Chalmers, D. (Ed.), *Philosophy of Mind: Classic and Contemporary Readings* (p.p. 68 - 72). Oxford University Press.

Hard Castle, Valery Gray & Stewart, C. Matthew. (2009). fMRI: A Modern Cerebrascope? The Case of Pain. In Bickle, J. (Ed.), *The Oxford Handbook of Philosophy of Neuroscience* (p.p. 179 - 195). Oxford University Press.

Heil, *John. Philosophy of Mind.* New York and London: Routledge. (2013).

Hartman, Edwin. (1977). *Substance, Body, and Soul.* Princeton University Press.

Kalat, James W. (2014). *Introduction to Psychology.* Canada: Wadsworh Cengage Learning.

Kripke, Saul A. (1997). The Identity Thesis. In Block, N., Flanagen, O., & Güzeldere, G. (Eds.), *The Nature of Consciousness* (p.p. 445 - 450). MIT Press.

LaPorte, Joseph. (2016). Rigid Designators. *Stanford Encyclopedia of Philosophy.* Plato.stanford.edu/entries/rigid-designators/.

Nagel, Thomas. (1997). What Is It Like to Be a Bat? In Block, N., Flanagen, O., & Güzeldere, G. (Eds.), *The Nature of Consciousness* (p.p. 519 - 527). MIT Press.

Nussbaum, M., & Putnam, H. (1992). Changing Aristotle's Mind. In Nussbaum, M., & Oksenberg Rorty, A. (Eds.), *Essays on Aristotle's De Anima* (p.p. 27 - 56). Clarendon press.

Place, U. T. (2002). Is Consciousness a Brain Process? In Chalmers, D. (Ed.) *Philosophy of Mind: Classic and Contemporary Readings* (p.p. 55 - 60). Oxford University Press.

Polansky, Ronald. (2007). *Aristotle's De Anima.* Cambridge University Press.

Preus, Anthony. (2015). *Historical Dictionary of Ancient Greek Philosophy.* 2nd ed., Lanham. Rowman & Littlefield.

Putnam, Hilary. (2002). The Nature of Mental States. In Chalmers, D. (Ed.), *Philosophy of Mind: Classic and Contemporary Readings* (p.p. 73 - 79). Oxford University Press.

Searle, John. (2004). *Mind: A Brief Introduction.* Oxford University Press.

---. (1997). Reductionism and the Irreducibility of Consciousness. In Block, N., Flanagen, O., & Güzeldere, G. (Eds.), *The Nature of Consciousness* (p.p. 451 - 453). MIT Press.

Smart, J. J. C. (2002). Sensations and Brain Processes. In Chalmers, D. (Ed.), *Philosophy of Mind: Classic and Contemporary Readings* (p.p. 60 - 68). Oxford University Press.

Schouten, M. & De Jong, H. (2012). Mind Matters: The Roots of Reductionism. In Schouten, M. & De Jong, H. (Eds.), *The Matter of The Mind: Philosophical Essays on Psychology, Neuroscience, and Reduction* (p.p. 1 - 28). Willy-Blackwell.

Van Gulick, Robert. (2009). Functionalism. In P. McLaughlin, B., Beckermann, A. & Walter, S. (Eds.), *The Oxford Handbook of Philosophy of Mind* (p.p. 128 - 151). Clarendon Press.

Weisberg, Josh. (2004). *Consciousness.* Polity Press.

Abstract

Purpose: The study aims to show the nature of the relationship between mental phenomena and nervous and biochemical systems, which is one of the essential subjects of investigation in the philosophy of mind and, perhaps, one of its most controversial issues. For instance, one school of thought in the philosophy of mind, physicalism, claims that mental phenomena are identical to nervous and biochemical systems. In contrast, others, such as dualism and nonreductionism, reject this claim and stress their substantial differences. One of the main the research objectives is to argue that physicalism, philosophically and scientifically speaking, is the most plausible and promising approach to unraveling the complex nature of the relationship between mental phenomena and physical systems. My position rests on 1) a peculiar interpretation of Aristotle's treatment of the relationship between soul and body; 2) noting significant philosophical shortcomings in some of the philosophic presuppositions of the major objections raised against physicalism; 3) the insufficiency of the functionalists' explanation of mental phenomena; 4) some of the current scientific approaches (such as neuroscience, cognitive neuroscience, experimental neuropsychology, network neuroscience, and psychology) towards the relationship between mental phenomena and nervous and biochemical systems. **Methodology:** The research method is, therefore, twofold: one is a priori, which approaches the nature of mental phenomena from a philosophical perspective, and the other is a posteriori, which uses scientific empirical explanations to inform and substantiate the central philosophical position of the study.

Keywords: mental phenomena, reduction, functionalism, neural processes, form, qualia..

The Author:

Dr. Hussain H. A. H. Esmail

- Bachelor of Philosophy from Kuwait University.
- M.A., Ph.D. from Boston College in Greek Philosophy.
- Doctoral Dissertation: The Possibility of Philosophical Discourse in Plato's Theaetetus.
- Assistant Professor at Kuwait University - Department of Philosophy.

Publications:

A) Books

1- On the Need for Philosophic and Structural Revolution in the Middle East.

Published by Takween Press.

B) Articles:

1- Being in Aristotle and Avicenna: From the Multiplicity of Essence to the Unity of Existence. Published by Annals of The Arts and Social Sciences – Kuwait University – 2018.

2- The Nature of Time According to Aristotle and McTaggart. Published by Journal of Arts & Social Sciences - College of Arts and Social Sciences at Sultan Qaboos University, Muscat, Oman.

Doi10.34120/0757-043-620-001
Monograph (620)

A Reductionist Approach to the Nature of Mental Phenomena Injected with Aristotelian Ideas Accompanied by a General Discussion of Functionalism

Hussain H. A. H. Esmail, Ph.D.

Department of Philosophy - College of Arts

Kuwait University

ANNALS OF THE ARTS AND SOCIAL SCIENCES - KUWAIT UNIVERSITY

Editorial Board

- **Prof. Taghreed Alqudsi**
  Editor - in - Chief
  Kuwait University
- **Prof. Abdallah M. E Alghazali**
  Department of Arabic Language and Literature - Kuwait University
- **Prof. Baqer Salman Alnajjar**
  Sociology and Social Service Department - Kuwait University
- **Prof. Aded El-Aziz Ali Safar**
  Department of Arabic Language and Literature - Kuwait University
- **Prof. Numan M. Jubran**
  History Department
  Kuwait University
- **Dr. Abdullah Mohamed Aljasmy**
  Philosophy Department
  Kuwait University
- **Dr. Ibraheem Nagy Al-Hadban**
  Department of Political Science
  Kuwait University
- **Dr. Ahmed Mubarak AlHasem**
  Geography Department
  Kuwait University
- **Maha Ibrahim Al-Msad**
  Editorial Manager
  Kuwait University

Advisory Board

- **Prof. Basil Hatim**
  American University
  Sharjah - United Arab Emirates
- **Prof. Ibrahim Al-Sa'afin**
  Department of Arabic Language and Literature - Jordan University
- **Prof. Hamdi Hasan Abul Enein**
  Faculty of Mass Communication
  Misr International University
- **Prof. Sari Hanafi**
  President of the International Sociological Association - American University- Beirut
- **Prof. Mona Baker**
  Manchester University
  United Kingdom
- **Prof. Abdul Qader Al-Fasi Al Fehri**
  Department of Arabic Language and Literature -Mohammed V University
- **Prof. Mahmoud Al-Sayed Abul-Nil**
  Department of Psychology
  Ain Shams University
- **Prof. Abdullah Al-Walee'i**
  Geography Department
  King Saud University
- **Prof. Ma'moun Fandi**
  Director of London Institute of Strategic Studies - United Kingdom

ANNALS OF THE ARTS AND SOCIAL SCIENCES

Academic Publication Council - Kuwait University

REFEREED SCIENTIFIC QUARTERLY THAT PUBLISHES TOPICS IN THE HUMANITIES, SOCIAL SCIENCES & LITERATURE

Volume 43, 2023

Rates:

Kuwait: K.D. 0.500, Bahrain: BD 1, Qatar: RQ 10, Emirates: DH 10,
Saudi Arabia: RS 10.

Cost per issue in Arab Countries: Equivalent to one US dollar

Cost per issue in other Countries: Equivalent to three US dollar

● Annual Subscription (individuals):

1 Year: Kuwait: 4 K.D., Arab Countries: 6 K.D., Foreign Countries 22 dollars.
2 Year: Kuwait: 7 K.D., Arab Countries: 10 K.D., Foreign Countries 37 dollars.
3 Year: Kuwait: 10 K.D., Arab Countries: 14 K.D., Foreign Countries 52 dollars.
4 Year: Kuwait: 13 K.D., Arab Countries: 18 K.D., Foreign Countries 67 dollars.

● Annual Subscription (institutions):

1 Year: Kuwait: 22 K.D., Arab Countries: 22 K.D., Foreign Countries 90 dollars.
2 Year: Kuwait: 37 K.D., Arab Countries: 37 K.D., Foreign Countries 150 dollars.
3 Year: Kuwait: 53 K.D., Arab Countries: 53 K.D., Foreign Countries 210 dollars.
4 Year: Kuwait: 67 K.D., Arab Countries: 67 K.D., Foreign Countries 270 dollars.

All correspondence and enquiries must be addressed to:

Editor

ANNALS OF THE ARTS AND SOCIAL SCIENCES
P.O.BOX 17370 EL-KHALDIAH - KUWAIT 72454
Tel: 24830256 - Fax: 24830256
ISSN 1560-5248 Key title: Hawliyyat Kulliyyat al-Adab
E-mail: aass@Ku.edu.Kw
http:// apc. kuniv.edu.kw/AASS/

تتوفر نصوص البحوث كاملة لدى:
EBSCO Publishing Products
دار المنظومة: www.mandumah.com

The Publications of The Academic publiction council

journal of the Social Sciences 1973, Kuwait Journal of Science and Engineering 1974, journal of the Gulf and Arabian Peninsula Studies 1975, Authorship Translation and Puplication Committee 1976, Journal of law 1977, Annals of the Arts and Social Sciences 1980, Arab Journal for the Humanities 1981, The Sducational Journal 1983, Journal of Sharia and Islamic Studies 1983, Arab Journal of Administrative Sciences 1991.

ANNALS OF THE
ARTS AND SOCIAL SCIENCES

A Refereed Academic Quarterly, Academic Publication Council - University of Kuwait

مقاربة فلسفية ردّية لطبيعة الظواهر الذهنية مطعمة بأفكار أرسطية مع مناقشة عامة للرؤية الوظيفية: بحث في فلسفة الذهن

A Reductionist Approach to the Nature of Mental Phenomena Injected with Aristotelian Ideas Accompanied by a General Discussion of Functionalism

Hussain H. A. H. Esmail, Ph.D.
Department of Philosophy - College of Arts
Kuwait University

جامعة الكويت
KUWAIT UNIVERSITY

Academic
Publication Council

ISSN: 1560 - 5248

Monograph 620 - Volume 43

1445 A.H / June 2023